الحوار والانفتاح على الآخر

حسن الصفار

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

تقديم

ثقافة العنف ظاهرة طاغية في الاجتماع العربي الإسلامي، فلا صوت يعلو على صوت دعاة نفي الآخر واستئصاله، وكل يوم يتعزز وجود هؤلاء، وتتسع دائرة تأثيرهم، وتتمدد مساحة نفوذهم، وتتسع باستمرار هيمنتهم على حقول متنوعة، تطاول مؤسسات التربية والتعليم، ووسائل الإعلام، والمنتديات الثقافية، ومرافق الخدمة الاجتماعية، والمحترفات والمشاغل المهتمة بتأهيل وإعداد الناشئة.

ويلتمس دعاة نفي الآخر مختلف الذرائع، من أجل بلوغ أهدافهم، فهم تارة يعودون إلى النص، ويسلخون المتشابهات عن المحكمات، ويقدمون تأويلاً لها، يفرغون فيه كل الإكراهات التاريخية، والمواقف الأيديولوجية المتعسفة، التي تفشت في حياة المسلمين في عصور الانحطاط، وازدهار لاهوت الطائفية، وتارة أخرى ينقبون في التراث، ويغرقون فيما تراكم من أقوال وحواش وشروح، في علم الكلام، والفقه، والتفسير، ليكدسوا مادة وفيرة من الآراء والمقولات، التي تصوغ ميثولوجيا التمرد والثورة، وتنزع إلى تهشيم السلم الأهلي، وزج المجتمعات في احتراب داخلي، يستنزف إمكانات نهوضها، ويبدد طاقاتها، ويفتت مقومات حياتها.

وتحرص جماعات العنف على امتلاك أحدث تقنيات المعلوماتية ووسائل الاتصال، واحتواء النخب المؤهلة علميًّا في تلك التقنيات، ودمجها بخلاياها وتشكيلاتها، بحيث أمسى

قطاع واسع من الخبراء يمنحون خبراتهم لهذه الجماعات، ويتطوعون في تقديم أحدث الخدمات الفنية في تكنولوجيا المعلومات لها مجاناً.

وفي مقابل لا تجد الأصوات العقلانية والواقعية، وأفكار التعايش واحترام الآخر، الإمكانات المادية والخبرات الفنية اللازمة، لإشاعتها والتثقيف عليها. وربما تعرضت إلى موجات صاخبة من التخويف والتخوين، وسلب المشروعية عنها، وتعبئة وتجييش الجماهير لمعاداة أصحابها، ومناهضة من يبشر بها. وكأن قدر مجتمعاتنا أن تظل عقولها مغيبة، وأفكارها مضطربة، ومفاهيمها مشوشة، وإرادتها مغلولة. وأية محاولة لإيقاظها، وتحرير إرادتها، يجهضها المهرجون، الذين لا يجيدون سوى استعداء عامة الناس على ذوي الرأي المعتدلين، ويحرصون على إذكاء روح الفتنة والانشقاق.

وكتاب (الحوار والانفتاح على الآخر) يضم مجموعة مساهمات للأخ العلامة الشيخ حسن الصفار، تمثل خلاصة تجارب عملية متنوعة في التفاهم، والحلقات النقاشية، وغرف الحوار، والمنتديات الثقافية، والمؤسسات الاجتماعية، مع أطياف عديدة. وتكمن أهمية هذه التجارب في أنها حاولت أن تقتحم الممنوع، وتتجاوز النزعات التكفيرية لدى بعض الجماعات الأصولية والسلفية، المغلقة والمنكفئة على نفسها، فلم يجد فهم الشيخ الصفار للإسلام ما يحضر عليه الإصغاء إلى أي إنسان ومحاورته، لأن الله تعالى أصغى للشيطان وحاوره. مثلما وجد ذلك الفهم الإنساني للإسلام أن التسامح، واحترام الآخر، والانفتاح على البشرية بأسرها، هي من أجلى خصائص هذا الدين وسماته، تلك السمات التي طمستها ثقافة الكراهية، وما تفضي إليه من تعميم لحالات البغضاء والعدوانية وغيرها من القيم الرديئة، والعاهات الأخلاقية.

ويجئ نشر هذا الكتاب في سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، من أجل اكتشاف جوهر الدين، وما يختزنه من عناصر، ترسخ السلم، وتنبذ العنف بكافة أشكاله، وتبني أخلاقيات

الحوار والفهم المتبادل، وتتعامل مع الناس (إما أخ في الدين أو نظير في الخلق).

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عبدالجبار الرفاعي

مقدمة

العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا يعتبر مكمناً أساساً من مكامن الداء في هذه المجتمعات، ومظهراً صارخاً من مظاهر التخلف.

وتشترك عدة عوامل في تكريس هذه الحالة المرضية، منها العامل التربوي حيث تزرع العائلة في نفوس أطفالها الحذر من الاختلاط بالآخرين بشكل مبالغ فيه، وتمارس مع أبنائها أسلوب الأمر والزجر دون إعطائهم فرصة للتفكير والنقاش. كما تعتمد أغلب مناهج التعليم طريقة التلقين وفرض الرأي الواحد، ورفض ما سواه لأنه باطل وكفر وشرك وابتداع.

والتوجيه الديني في مجتمعاتنا ينتهج في معظمه أسلوب الحدّية والتطرف تجاه الآخر، على أساس أنه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾، وأن فرقة واحدة هي الناجية والباقين في النار، مع تطبيق ذلك على تفاصيل موارد الاختلاف وتنوع الاجتهادات. ويدفع هذا النمط من التوجيه الديني إلى مقاطعة الآخر المخالف والمختلف، معاقبة له على ضلاله، وإنكاراً لمنكره، ولردعه عن بدعته، وللتحصين من تأثيراته المختلفة، والتزاماً بواجب البراء من أعداء الله.

وعلى الصعيد الاجتماعي تتمايز التكتلات والانتماءات إلى حدّ القطيعة والتنافر، ويصبح التواصل مع الجهة الأخرى لوناً من الخيانة للجماعة، وانعدام الولاء، وميوعة الانتماء، لأن صديق العدو عدو.

أما على المستوى السياسي فالأمر أشد قتامة وتعقيداً في ظل حكومات الاستبداد، حيث لا مجال للرأي الآخر، ولا فرصة للمعارضة، ولا قيمة لمن يخالف أو يعارض، حتى يتنزل

الحاكم من علياء هيبته للاستماع إليه والانفتاح عليه، وإنما يتعامل معه كمجرم يستحق أقسى العقوبات لشقه عصا الطاعة.

كما تبالغ بعض جهات المعارضة في تشددها، فتمارس المعارضة حرفة، وشأناً توقيفيًّا تعبديًّا، لا تلوثه بشيء من دنس الحوار والانفتاح على السلطات، فذلك ركون إلى الذين ظلموا، ومساومة في الدين، وتراجع عن خط الثورة والجهاد.

هذه الأرضية الاجتماعية والأجواء الثقافية السياسية، هي التي تنتج حالة الركود والجمود، وتكرّس واقع التنافر والتباعد، والخصومة والنزاع، بين قوى الأمة وفئاتها الفكرية والاجتماعية.

فلا بد من تضافر الجهود الواعية، لصناعة أجواء صالحة، ولخلق أرضية جديدة، تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار، لتتعارف الجهات فيما بينها، وتكتشف نقاط الالتقاء، وموارد الاختلاف، ولتثري كل جهة معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخرين، وليأخذ الاختلاف مساره الإيجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، وشحذ الإرادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل، والقيام بالدور الأنفع.

وهذه السطور التي بين يدي القارئ الكريم، مساهمة متواضعة في جهود التوعية، والتبشير بثقافة الحوار والانفتاح.

حسن الصفار

القطيف ١٤٢٣/٣/٢٥هـ

الانفتاح على الرأي الآخر

حين تذهب إلى السوق لشراء سلعة تحتاجها كسيارة أو جهاز حاسب آلي، أو أي شيء آخر، ولا تجد في السوق إلا نوعاً واحداً من تلك السلعة، فإنك ستشتريه سدًّا للحاجة، وقد لا تجد مسوّغاً لتفحص ميزاته والتدقيق في خصائصه، فأنت ستقتنيه على أي حال، لأنه الخيار الوحيد أمامك.

أما إذا رأيت أمامك أنواعاً مختلفة من السلعة التي تريدها، فستبذل جهداً لفحص ميزات كل نوع، ومدى امتيازاته، ثم تختار الأفضل والأنسب لك من بين الأنواع المعروضة عليك.

إن الفارق بين الحالتين واضح، ففي الأولى أنت لا تضمن الحصول على الأفضل، وقد لا تهتم لمعرفة خصائص ما تختار. أما في الحالة الثانية فإن تعدد الخيارات يمنحك فرصة البحث والمقارنة، ويجعلك أكثر فهماً لما تختار.

وهكذا الأمر لو كنت تبحث عن مشروع اقتصادي للاستثمار، أو برنامج سياحي لمنطقة معينة، أو علاجاً لمشكلة صحية، فإن تعدد الخيارات في كل مجال يوّفر لك أفضل الفرص، وأعلى درجة من المصلحة.

هذه المعادلة الواضحة في القضايا المادية، تنطبق أيضاً على الصعيد الفكري والمعرفي، فإذا كنت مهتمّاً بقضية فكرية، ووجدت نفسك أمام رأي واحد في معالجتها، فقد تعتنق ذلك الرأي دون كثير من التأمل والتفكير، أما إذا تعددت أمامك الآراء والأفكار، فسيدفعك ذلك للدراسة والمقارنة فيما بينها، والبحث عن الرأي الأفضل والفكرة الأصح. وبذلك تكون

أكثر إدراكاً ووعياً بالرأي الذي تعتنقه.

فالنظر في الآراء المختلفة يتيح فرصة البحث عن الرأي الأفضل، ويوفرّ درجة أعلـــى في فهم ومعرفة الرأي المختار.

القرآن: دعوة إلى الانفتاح:

لذلك يدعو القرآن الكريم الإنسان إلى التفكير فيما يتبنى من آراء ومعتقدات، فلا يجعل نفسه أمام اتجاه واحد إجباري، ولا ينغلق على موروثاته من آبائه وأســلافه، دون دراســة وتمحيص، ولا يرفض الانفتاح على أي فكرة ومحاكمتها على ضوء العقل، لقبولها إن كانت أصح وأفضل.

إن الله تعالى يبشر عباده المنفتحين فكريًّا، والذين يدرسون مختلف الآراء، ليتبنوا أفضلها وأحسنها، بأن منهجية الانفتاح هي التي ستقودهم إلى الهداية، وتمكنهم من استثمار عقولهم، واستخدامها بالشكل الصحيح.

يقول تعالى: ﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1].. إنهم يستمعون القول، أي يقصدون الإصغاء إليه باهتمام، وليس يسمعون بشكل عفوي عابر، واستخدام القرآن الكريم للفظ يستمعون يلفت إلى ذلك.

والقول جنس يشمل كل قول، والمقصود به الكلام الذي يعبّر عن فكرة ورأي.

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

((الآيتان المذكورتان اللتان وردتا بمثابة شعار إسلامي، بينتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأمور. ففي البداية تقول ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ثم تعّرج على تعريــف

(١) سورة الزمر: آية ١٨.

أولئك العباد المقربين بأنهم أولئك الذين لا يستمعون لقول هذا أو ذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلم، والذين ينتخبون أفضل الكلام من خلال قوة العقل والإدراك، إذ لا تعصب ولا لجاجة في أعمالهم، ولا تحديد وجمود في فكرهم وتفكيرهم، إنهم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافي من دون أي حرج حتى يرتووا.

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع وآراء بقية المذاهب، إذ أنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى من حجتهم الضعيفة، وهذا ما يسبب فقدان الأتباع الذين قد يلتحق بعضهم بالمذاهب الأخرى الأفضل.

إلا أن الإسلام ـــ كما شاهدنا في الآيات المذكورة أعلاه ـــ ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين، الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون قيد وشرط، ولا يتقبلون كل وسواس. الإسلام الحنيف يبشر الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيئ، وإنما ينتخبون الأحسن ثم الأحسن من كل قول ورأي))[1].

وعلى ضوء الآية الكريمة، وردت أحاديث وروايات، تشجع الإنسان على البحث عن الحقيقة والصواب من أي مصدر كان، وهذا يعني الانفتاح على مختلف المصادر وإن كانت في اتجاه آخر مخالف، بل هو ما تصرح به الأحاديث والنصوص.

فحينما يقول حديث مروي عن رسول الله ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين)[2]. فإنه يعني عدم التحفظ على أي مصدر للمعرفة ما دام الإنسان ملتزماً بضوابط التفكير السليم.

وفي نفس السياق يأتي ما روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (الكلمة الحكمة

(١) الشيرازي: ناصر مكارم/ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج١٥ ص٤٧-٥٠، الطبعة الأولى ١٩٩٢، مؤسسة البعثة – بيروت.

(٢) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال، حديث رقم ٢٨٦٩٧، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة١٩٨٥- بيروت.

ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها)[1].

والضالة هي الشيء الذي يفقده الإنسان فيبحث عنه، ويعلّق الإمام أبو الحسن الحنفي السندي في شرحه لهذا الحديث قائلاً: ((أي مطلوبة له بأشد ما يتصور في الطلب، كما يطلب المؤمن ضالته، وليس المطلوب بهذا الكلام الإخبار إذ كم من مؤمن ليس له طلب للحكمة أصلاً، بل المطلوب به الإرشاد كالتعليم، أي اللائق بحال المؤمن أن يكون مطلوبه الكلمة الحكمة))[2].

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: ((الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها))[3]. وفي كلمة أخرى، قال عليه السلام: ((الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق))[4].

وهناك رواية جميلة مذكورة في عدة مصادر عن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: (خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقادّ الكلام)[5]. وقد أوردها السيوطي في الدر المنثور(ج٢ ص٣١٠/ دار المعرفة- جدة١٣٦٥هـ) وابن عساكر في تاريخ دمشق (ج٤٧ ص٤٤٠ دار الفكر ١٤١٥هـ) والبرقي في المحاسن (ج١ ص٢٢٩/دار الكتب الإسلامية).

فما دام الإنسان يمتلك عقلاً يميّز به الصواب من الخطأ فلا خوف من الانفتاح الفكري، على مختلف الآراء والأفكار، والمهم هو دراسة الرأي والفكرة، بغض النظر عن مصدرها، وعن الموقف منه.

---

(١) الترمذي: محمد بن عيسى/ سنن الترمذي، حديث رقم ٢٨٢٨.
(٢) السندي: أبو الحسن الحنفي/ شرح سنن ابن ماجة ج٢ ص٥٤٢، دار الجيل- بيروت.
(٣) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٥ ص٣٤، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
(٤) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، قصار الحكم ٨٠.
(٥) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢ ص ٩٦.

رفض الانغلاق:

إذا انغلق الإنسان على رأيه، وأعرض عن الانفتاح على الآراء الأخرى، فإنه سيعزل نفسه عن تطورات الفكر والمعرفة، ويحرم نفسه من إدراك حقائق ومعارف مفيدة، وقد يكون رأيه الذي انطوى عليه خاطئاً، فلا يكتشف بطلانه في ظل حالة الانكفاء والانغلاق.

لقد ذمّ القرآن الكريم منهجية الانغلاق الفكري، من خلال إدانته لرفض المخالفين للأنبياء الاستماع والإصغاء لما يطرحه الأنبياء، لموقفهم المسبق من رسالاتهم.

فهؤلاء قوم نبي الله نوح عليه السلام كانوا يرفضون مجرد السماع إلى دعوته، فإذا جاء لمخاطبة أحد منهم أمسك على أذنه بأصابعه، بل غطى وجهه عنه، حتى لا ينفذ إلى ذهنه شيء من كلامه، أو تتأثر نفسه بملامح شخصيته وإشاراته.

حتى شكاهم نوح إلى ربه، كما ينقل القرآن الكريم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [(١)].

وكفار قريش كانوا يظهرون أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لامبالاتهم بسماع دعوته، ورفضهم للنظر في شأنها، يقول تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [(٢)]. فهم يعلنون أن عقولهم مغلقة مؤصدة أمام دعوته، وسمعهم ثقيل لا يخترقه صوته، وبينهم وبينه مسافة وحاجز تمنعهم عن التفاعل معه.

بل كانوا في بعض الأحيان يخلقون جوًّا من الفوضى والضجيج، حينما يبدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم، لئلا يسمع أحد تلاوته، ويتأثر بكلامه، وكانوا يطلبون من الناس ألا يصغوا لسماع آيات القرآن، وأن يقابلوها باللغو صياحاً وتصفيراً

(١) سورة نوح: آية ٧.

(٢) سورة فصلت: الآيتان ٤- ٥.

وتصفيقاً. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (1). قال ابن عباس: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه، ويقولون لهم: لا تسمعوا له والغوا فيه فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها(2).

وينقل التاريخ كشاهد لمنهجية الانغلاق التي اعتمدها المشركون أمام الدعوة قصة الطفيل بن عمرو الدوسي، والذي حدّث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنّه ولا تسمعن منه شيئاً. قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى البيت الحرام كُرسُفاً – قطناً – فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته؟ قال فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخيفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ

(1) سورة فصلت: آية ٢٦.

(2) ابن عاشور: محمد الطاهر/ التحرير والتنوير ج٢٥ ص٤٦، مؤسسة التاريخ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م – بيروت.

أمرك. قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وشهدت شهادة الحق[1].

لماذا الانغلاق؟

لماذا يفرض الإنسان حصاراً على عقله؟ ولماذا يرفض الانفتاح على الرأي الآخـــر؟ إن لذلك مبررات وأسباباً من أبرزها: الجهل والسذاجة، فمن يدرك قيمة المعرفة والعلم، ويتطلع إلى الحقيقة والصواب، يظل باحثاً عن الحق، طامحاً إلى الرأي الأفضل والأكمل. أما الجاهـــل الساذج فيعيش شعوراً بالاكتفاء ويرى أن ما لديه من رأي يمثل الحقيقة المطلقة، والســـقف الأعلى للمعرفة.

وقد يكون الانغلاق منطلقاً من حالة اللامبالاة تجاه القضية التي تتعـــدد حولهـــا الآراء، وتكون مثاراً لاختلاف الأفكار، فهو لا يجد نفسه معنيًّا بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، فلماذا يشغل ذهنه بالتفكير والبحث والمقارنة.

ينقلون عن رجل من طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف بالعراق أنه سئل أيام احتدام النقاش حول مسألة المشروطة بمعنى تقييد الحاكم بنظام ودستور، أو المستبدة بمنح الصلاحية الكاملة للحاكم، حيث اختلف الفقهاء المراجع في مواقفهم على أثر تطـــورات سياســـية في إيران، فسئل هذا الطالب: هل أنت مع رأي المشروطة أو رأي المستبدة؟ فأجاب: أنا صاحب عائلة.

ويقصد أنه مشغول بشؤونه الشخصية والعائلية، ولا اهتمام له بهذا الموضوع، حتى يكوّن حوله رأياً، ويتخذ موقفاً.

وقد يكون دافع الانغلاق الكسل عن البحث والتحقيق، لما قد يستلزمه الانفتاح علـــى

(١) ابن هشام: عبد الملك/ السيرة النبوية ج١ ص٤٢٠، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

الرأي الآخر من إعمال الفكر والنظر، وبذل جهد في الدراسة والمقارنة بين الآراء والأفكار.

وفي كثير من الأحيان يكون ضعف الثقة بالذات صارفاً عن تعرّف الرأي الآخر، حيث لا يجد الإنسان نفسه مؤهلاً للاستقلال بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، ولا قادراً على التمييز بين الخطأ والصواب، فيترك هذا الدور للمؤهلين مكتفياً بدور التقليد والإتباع.

وإذا كان ذلك صحيحاً في الأمور التخصصية العلمية، فإنه لا يصح فيما عــداها، و إلا لتوقف دور العقل، وانحصرت الاستفادة منه في حدود شريحة معينة.

وقد يتهيّب الإنسان مواجهة الحقيقة في مجال من المجالات، لما قد يترتب عليه من تغيير في أوضاعه ومواقفه، فيتهرَّب عن الاطلاع على الرأي الآخر، حين يكون غير واثق تماماً مــن الرأي الذي يعتنقه، فيحرجه الانفتاح على الرأي الآخر، الذي قد يكشف له خطأ فكرتــه ورأيه.

كل ما سبق يدخل ضمن عوامل الامتناع الذاتي عن الانفتاح على الرأي الآخر، وهناك عاملان خارجيان يتمثلان في وجود تشويش وإعلام مضاد للرأي الآخر، يخلق عزوفاً عنــد المتأثرين به عن الاقتراب من ذلك الرأي. والإعلام المضاد سلاح يشهر دائماً في الصراعات والخلافات، وخاصة ذات الطابع الفكري والثقافي، ويُتوقع من الإنسان الواعي أن لا يقــع تحت تأثير الدعاية والإعلام بين الأطراف المتنازعة، على حساب مرجعية العقل، والــتفكير الموضوعي، فيتيح لنفسه فرصة الدراسة والبحث، ويعطي لعقله مجال الاطلاع المباشر علــى الآراء المختلف حولها.

والعامل الثاني الخارجي يتمثل في وجود قوة تمارس دور الوصاية والقمع الفكري، فتحد من حرية الفكر، وتمنع نشر ما يخالفها من رأي، وتحظر على الناس الاطلاع علــى الــرأي الآخر، وعادة ما تفشل القوة أخيراً في معركتها ضد الرأي والفكر، حيث لم تستطع قريش بكل جبروتها ونفوذها أن تمنع انتشار هدى الإسلام، و لم يتمكن الأمويون والعباسيون رغم

قمعهم وبطشهم إطفاء نور أهل بيت النبوة ﷺ، و لم تنجح كنيسة العصور الوسطى بإرهابها ومحاكم تفتيشها في إيقاف مسيرة العلم والتحرر.

وفي عصرنا الحاضر ومع تطور وسائل الاتصالات المعلوماتية، وتعدد قنوات الإعلام، التي تتجاوز السدود والحدود، فإن محاولات قمع الفكر، ومحاصرة الرأي، تصبح جهداً ضائعاً، وسعياً فاشلاً.

الرأي والرأي الآخر:

يحدث أحياناً أن يمتلك الإنسان سلعةً أو جهازاً ذا ميزات متقدمة، وخصائص متطورة، لكنه لم يكتشف كل ميزات الجهاز الذي يمتلكه، و لم يبذل جهداً لمعرفة إمكاناته المتطورة، على أساس أنه في يده وتحت تصرفه، ثم يلوح له إعلان برّاق لجهاز آخر، فيندفع لاقتنائه تحت تأثير ذلك الإعلان الجاذب، مع أنه في الحقيقة أقل مستوى وتطوراً من الجهاز الذي يمتلكه، لكنه يجهل خصائصه.

وكان يفترض في هذا الإنسان أن يعرف أولاً قدرات الجهاز الذي لديه، ثم يطلع على الجهاز الآخر، وحينئذٍ سوف تقنعه المقارنة بأفضلية ما لديه.

إن ذلك يشبه اندفاع بعض أبناء المجتمع نحو الرأي الآخر قبل أن يتعرفوا جيداً الرأي الذي بحوزتهم من انتمائهم الديني والاجتماعي، فعلى الصعيد الإسلامي مثلاً، لا يبذل البعض من المنتمين للإسلام جهداً للاطلاع على حقيقة المعارف الإسلامية، مكتفين بالمظاهر والموروثات في محيطهم الاجتماعي عن الدين، فإذا ما لاح لهم رأي آخر، يمتلك جاذبية الطرح، وقوة الدعاية والإعلام، أقبلوا عليه وانشدوا إليه.

إنه نوع خاطئ من الانفتاح يفتقد الموضوعية والإنصاف، ويوقع الإنسان في احتمالات الخديعة والتضليل.

فالمفروض أولاً أن يتعرف الإنسان حقيقة الرأي الذي ينتمي إليه، ويدرك أدلته وبراهينه،

وأبعاده ومفاهيمه، ثم لينفتح على سائر الآراء والأفكار، ويقوم بدور المقارنة والتقويم.

إن الإسلام يدعو إلى الانفتاح، ويرفض الانغلاق الفكري، والخطوة الأولى في الانفتاح، هي الانفتاح على الذات، بأن يتعرف الإنسان إمكاناته وثرواته، ثم يتطلـــع إلى الإمكانـــات الأخرى، فإذا رأى فيها ما هو أفضل، أو ما يمكن إضافته إلى ما لديه، فسيكون تقويمه حينئذٍ أقرب إلى الصواب.

إذ ليس كل آخر هو أفضل، وليس كل جديد هو أحسن، وينبغي الاعتراف هنا بـــأن الانفتاح على الرأي الآخر قد يكون باعثاً للإنسان لمراجعة رأيه وتفحصه، وإدراك نقاط قوته وامتيازه، كما حصل ذلك بالفعل لبعض أبناء الإسلام، الذين أثارهم اطلاعهم على بعـــض الآراء الأخرى، ودفعهم لدراسة رأي الإسلام ورؤيته، فأصبحوا أكثر بصيرة في دينهم، وثقة في عقيدتهم.

إن مجرد الانتماء الاسمي للدين أو المذهب، وممارسة بعض الشعائر والتقاليد لا تكفـــي لتوفير معرفة حقيقية، تجعل الإنسان قادراً على المقارنة والتقويم.

الرأي الآخر الإسلامي:

من الطبيعي أن تتعدد الأفكار والآراء الدينية والسياسية في مجتمعات الأمة الإســـلامية، كأيّ مجتمع بشري، وقد تعددت المذاهب الدينية والتيارات السياسية، في وقت مبكر مـــن تاريخ الأمة، ويفترض في أمة تتلقى توجيهها من القرآن الكريم، أن تسود أجواءهـــا حريـــة الفكر، وأن تتوفر بين أبنائها فرص الاطلاع على الرأي الآخر، ضمن الدائرة الإســـلامية في الدرجة الأولى.

وقد كان من أخلاق علماء الأمة السابقين، حرصهم على معرفة الرأي الآخر في المسائل المختلف فيها، يتحدث الإمام أبو حنيفة أنه طرح على الإمام جعفر الصادق عليه السلام أربعـــين مسألة في مجلس أبي جعفر المنصور، كان يجيب عن كل واحدة منها بـــذكر مختلـــف الآراء

حولها، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنـا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، وما أخلّ منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة: إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس(1).

بل كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يأمر تلامذته عند إفتائهم للناس بأن لا يتجـاهلوا آراء المذاهب الأخرى، عندما يكون السائل أو المستفتي تابعاً لأحدها، فقد قال لتلميذه أبان بن تغلب، وكان يجلس للإفتاء في مسجد المدينة: انظر ما علمت أنه من قـولهم فـأخبرهم بذلك(2).

ولتأكيد منهجية الانفتاح على الرأي الآخر في ميدان العلم والمعرفة، اهتم بعض العلماء في التأليف والتصنيف حول مسائل الخلاف عرضاً ومقارنة، وأصبح ذلك لوناً مـن ألـوان المعرفة والبحث في الثقافة الإسلامية، ومن أوائل الكتب المؤلفة على هذا الصـعيد كتـاب (اختلاف العلماء) لمحمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤هـ، وكتاب (اختلاف الفقهاء) لأبي جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ، ومن أوسعها كتاب (الخلاف) للشيخ محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ.

وصار من مقاييس قوة العالم ومستوى معرفته مدى إحاطتـه بمختلـف الآراء وأدلـة استنباطها.

ينقل عن الشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٤-١٢٨١هـ) وهو من أسـاطين علمـاء الشيعة ومجددي مدرستها العلمية الأصولية المعاصرة، أنه كان في بحوث دروسه غالباً ما يبدأ بطرح الرأي الآخر، بعرض وافٍ، واستدلال متين، يفوق قدرة أصحاب الرأي أنفسهم، حتى ليظن تلامذته أنه يتبنى ذلك الرأي ويقره، ثم يبين وجهة نظره المخالفة بعد محاكمة الـرأي

---

(١) أبو زهرة: محمد/ تاريخ المذاهب الإسلامية ص٦٩٣، دار الفكر العربي- القاهرة.

(٢) الخوئي: السيد أبو القاسم/ معجم رجال الحديث ج١ ص١٤٩، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ.

الآخر، وكشف نقاط ضعف أدلته.

لكن المؤسف انحسار هذه المنهجية في هذا الزمن لدى كثير من الأوساط الدينية، التي ابتليت بداء الانغلاق الفكري، حيث ترفض مجرد الاطلاع على الرأي الآخر ودراسته، وتعمل لمحاصرته ومنع انتشاره. ففي المعاهد الدينية وكليات الشريعة، وفي مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وكتب الفتاوى، يعرض رأي واحد فقط، وتتجاهل بقية الآراء الإسلامية، وكأنها خارج دائرة الإسلام، بل ويتم تسفيه الرأي الآخر، وتشويهه، والتشكيك في نيات أصحابه، ورميهم بالكفر أو الشرك أو الابتداع.

فأنتج ذلك جيلاً من أبناء الأمة يجهلون بعضهم بعضاً، وتتفشى بينهم الكراهية والتعصب. يقول الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي تحت عنوان (ضرورة الاطلاع على اختلاف العلماء): ومما يساعد على التسامح وتبادل العذر فيما اختلف فيه: الاطلاع على اختلاف العلماء، ليعرف منه تعدد المذاهب، وتنوع المآخذ والمشارب، وأن لكل منهم وجهته، وأدلته التي يستند إليها، ويعول عليها، وكلهم يغترف من بحر الشريعة، وما أوسعه.

و من أجل ذلك أكدّ علماؤنا فيما أكدوه، وجوب العلم باختلاف الفقهاء، كوجوب العلم بما أجمعوا عليه، فإن اختلافهم رحمة، واتفاقهم حجة.

و في هذا قالوا: من لم يعرف اختلاف العلماء فليس بعالم.

من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم تشم أنفه رائحة الفقه!

وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون إلا رأياً واحداً، ووجهة واحدة، أخذوا من شيخ واحد، أو انحصروا في مدرسة واحدة، ولم يتيحوا لأنفسهم أن يسمعوا رأياً آخر، أو يناقشوا وجهة نظر مخالفة، أو يجيلوا أنظارهم في أفكار المدارس الأخرى.

ولو وسعوا آفاقهم لعرفوا أن الأمر يتسع لأكثر من رأي، وأن الآراء المتعددة يمكن أن تتعايش، وإن اختلفت وتعارضت. المهم هو الإنصاف وترك التعصب، والاستماع إلى

الآخرين، فقد يكونون أصوب قولاً، وأصح فهماً.

وآفة بعض (الحرفيين) — ممن أسميهم (الظاهرية الجدد)- أنهم يحسبون أن باستطاعتهم حذف الخلاف في المسائل الشرعية الاجتهادية فرعية أو أصلية، بجمع الناس على ما يرونه حقّاً وصواباً، ورفض ما عداه مما يعتبرونه باطلاً وخطأ.

ونسي هؤلاء أن الإعجاب بالرأي أحد المهلكات، وأن بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، ومن ذلك أن يحقر رأيه[1].

إننا نعيش عصر العلم والانفتاح، وتطور وسائل الاتصالات والإعلام، فهل يصح أن ننغلق تجاه بعضنا بعضاً؟ وأن تنعدم وسائل التعارف والاتصال فيما بيننا؟

إن مما يخدم حركة العلم والمعرفة الإسلامية، ويساعد على تقدمها وتطويرها، إقرار حرية الفكر، ورفع الحواجز والعوائق عن انتشار الرأي، كما أن التعارف والانفتاح المتبادل بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية، هو الطريق إلى تحقيق وحدة الأمة ورصّ صفوفها أمام الأخطار والتحديات الكبيرة.

(١) القرضاوي: الدكتور يوسف/ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص٧١-٧٤، الطبعة الثانية ١٩٩٣، مؤسسة الرسالة- بيروت.

الفكر بين الموضوعية والانحياز

من مصلحة الإنسان أن يرى الأشياء على حقيقتها، وبحجمها الواقعي، ليتعامل معها بشكل صحيح. فمن يقود السيارة – مثلاً – يحرص على أن يركز نظره، ويتجنب ما يعرقل الرؤية أو يشوشها، ليرى إشارات المرور، ومنعطفات الطريق، والمسافة بينه وبين السيارات الأخرى، فلا تختلط عليه الألوان، ولا تلتبس عليه المسافات الفاصلة، ليتمكن من القيادة السليمة.

أما إذا كان يعاني من خلل في النظر، أو تساهل في التركيز والانتباه، فرأى القريب بعيداً، أو البعيد قريباً، أو لم ينتبه لمنعطف أو ارتفاع في الطريق، فإن ذلك يعرضه للسوء والخطر.

كذلك في عالم الآراء والأفكار، فإن مصلحة الإنسان تقتضي حرصه على تمييز الأفكار، ومعرفة الصواب فيها من الخطأ، ليأخذ منها الموقف السليم.

لذلك، يحتاج إلى تركيز الفكر، والحذر من المؤثرات التي تشوش الرؤية أو تنحرف بها، حتى يتسنى له إدراك الحقائق، والوصول إلى مواقع الصواب.

إن من أهم شرائط التفكير السليم، التزام الموضوعية في البحث، دون ميل وانحياز، ليرى الإنسان الحق حقًّا فيتبعه، والباطل باطلاً فيجتنبه.

أما إذا ابتلي الإنسان بداء التعصب الفكري، فإنه يفوِّت على نفسه فرصة الإدراك الصحيح، والرؤية السليمة.

إن لداء التعصب الخطير مظاهر وأعراضاً على مستوى الفكر، كما له انعكاسات على

ساحة النفس، وميدان السلوك. ولعل من أبرز تجليات حالة التعصب الفكـــري، الســـمات التالية:

الارتباط العاطفي بالفكرة.

الانغلاق على الفكرة.

رفض المراجعة والحوار.

منهجية التفكير:

النقطة الأساس في التعامل مع الأفكار والآراء، اعتماد منهجية سليمة في التفكير، بـــأن يفسح الإنسان المجال لعقله، لكي يمعن النظر في كل فكرة بموضوعية وتجرد، دون تـــأثير أو تشويش من العوامل العاطفية الذاتية، أو الضغوط الخارجية.

إن التزام المنهجية السليمة في التفكير قيمة عليا، وهدف مقصود، بغض النظر عما يوصل إليه من نتائج صائبة في الرأي، فحتى لو أدى اجتهاد الإنسان الفكري إلى نتيجـــة خاطئـــة، لسبب أو آخر، فإنه لا يؤاخذ بخطئه عقلاً وشرعاً، ما دام قد بذل جهده، ضمن منهجيـــة سليمة، بينما لو أدرك نتيجة صائبة باعتماد منهجية خاطئة، فإنه يستحق اللوم والمؤاخـــذة. وفي مجال العلوم الشرعية، اتفق علماء الإسلام على أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، وإنما استحق الأجر مع خطئه لما بذل من جهد ضـــمن منهجيـــة صحيحة للاستنباط. أما لو سلك منهجية غير سليمة، كالاعتماد علـــى طريـــق الســـحر والشعوذة، أو أطياف النوم، لأخذ الرأي الشرعي، فإنه محاسب على انتهاج هـــذا المســـلك الخاطئ، ولو وصل عبره إلى ما يطابق رأي الشرع.

إن سلامة منهجية التفكير تعني تحرر العقل في بحثه ونظره من المؤثرات العاطفية، بـــأن يعطي الإنسان لعقله حرية العمل والحركة، ولا يقيده برغباته وانشداداته العاطفية والمصلحية، ليقوم العقل بدوره خير قيام، وليؤدي وظيفته على أحسن وجه، ويستطيع الإنسان بعد ذلك

أن يعتمد على حكم عقله، وأن يثق بحصيلة فكره. فكما تثق برؤيتك البصرية السليمة، يمكنك الثقة بحكم عقلك المتحرر، لأن الله تعالى وهبك العقل للتفكير، كما منحك العين للإبصار.

لذلك تؤكد النصوص الدينية أهمية مرجعية العقل، والثقة بدوره.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: ((إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له))[1]. وعنه ﷺ: (استرشدوا العقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا))[2].

وروي عن الإمام على عليه السلام: ((العقل رسول الحق))[3]. وعنه عليه السلام: ((العقل يهدي وينجي))[4]. وعنه عليه السلام: ((لا يغش العقل من استنصحه))[5].

لكن مشكلة الكثيرين من الناس هو التنكر لعقولهم وتجميدها، وتبني أفكاراً وأراء دون عرضها على العقل، ودون إعطائه الفرصة لفحصها ودراستها، وقد يقحم البعض من الناس عواطفهم وميولهم في ساحة عمل العقل، فيربكون حركته، ويشلّون فاعليته.

إن تركيبة العقل وآلية عمله تقتضي التماس الدليل والبرهان، لأي فكرة أو رأي، فإذا توفر الدليل الصادق والبرهان الصحيح، بارك العقل تلك الفكرة وزكاها، أما إذا انعدم الدليل، أو كانت الحجة واهية، فضح العقل زيف تلك الفكرة وأنكرها.

لذلك، يؤكد القرآن الكريم على محورية الدليل والبرهان في اتخاذ موقف من أي قضية أو رأي.

ففي أربعة موارد من آيات القرآن تكرر قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٤ ص١٥٨.

(٢) الريشهري: محمدي/ ميزان الحكمة ج٦ ص ٤٠٤.

(٣) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، الحكم القصار ٢٨١.

صَادِقِينَ﴾ [1]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [2].

وكما قال الشاعر:

نحـــن أتبـــاع الـــدليل   حيثمـــا مـــال نميـــل

وقال شاعر آخر:

من ادعى شيئاً بلا شاهد   لا بد أن تبطـــل دعـــواه

منهجية خاطئة:

ولكن لماذا يتجاوز بعض الناس عقولهم، فيتمسكون بأفكار غير مدروسة، لا تستند إلى دليل وبرهان صحيح؟

هناك أسباب عديدة جذرها الانحياز العاطفي، على حساب الموضوعية العقلية:

١-فتقدير الإنسان لأسلافه، وحبه لعائلته، يجعله راغباً في وراثـــة أفكـــارهم، وقبـــول متبنياهم، من غير أن يشعر بالحاجة إلى مراجعتها، وإعادة النظر فيها، على ضوء العقل، بـــل قد يهرب من المراجعة والدراسة، خشية أن تقوده إلى مخالفة السلف، وهو ما لا يريده، ولا يمتلك الجرأة عليه.

إن اكتشافه لأخطاء منهج آبائه وأسلافه، يعني في نظره انتقاصهم والحط من مكانتـــهم وشأنهم. وهذا ما لا يتقبله ولا يرضاه.هكذا يضع الإنسان نفسه أمام خيار اتبـــاع الآبـــاء والأسلاف، والتعصب لأرائهم وتوجهاهم، ورفض ما يخالفها من الحق والصواب.

لقد كانت رسالات الأنبياء، دعوة صارخة لمجتمعاهم، باستنهاض عقولهم، والخلاص من هيمنة أفكار الآباء والأسلاف، التي كان الالتزام بها، والتعصب لها، مانعاً من قبول الهـــدي

---

(١) سورة البقرة: آية ١١١. وسورة النمل: آية ٦٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٤٨.

الإلهي، واتباع منهج العقل السليم.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١).

لقد نشأوا وتربوا على طريقة ومذهب آبائهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، والأمة هنا الطريقة والمذهب. فقرروا اتباع نهج آبائهم، وتقليدهم والإقتداء بهم، دون دراسة وبحث، ولا دليل وبرهان، وحينما يخاطبهم الرسول بلباقة وأدب: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؟ وذلك بهدف دفعهم للتقويم والموازنة بين نهج الآباء ورسالة الحق، إنه لا يقول لهم: إن آباءكم ضالون منحرفون، مراعاة لمشاعرهم، بل يقول لهم: أعطوا لعقولكم الفرصة للمقارنة والبحث، فإن ثبت لكم أن نهج الآباء أفضل وأصوب، فلا لوم عليكم في إتباعه، أما إذا أتضح لكم أن ما أطرحه عليكم أهدى وأحق، فهل ترضون لأنفسكم مخالفة ما أقرت عقولكم أفضليته؟

لكن المؤسف أن جوابهم هو رفض التفكير والمراجعة، وأخذ موقف تعصبي: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. وفي آية أخرى ينقل عنهم القرآن الكريم شعورهم بالاكتفاء بنهج أسلافهم، وادعائهم عدم الحاجة إلى غيره، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (٢).

هذا هو منطق كل المتعصبين بأنهم يمتلكون الحقيقة الكاملة، وأن أي فكرة أخرى لا تضيف لهم جديداً، لذلك لا يجدون داعٍ لمراجعة أفكارهم، أو دراسة أي رأي مخالف.

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣ – ٢٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٠٤.

الجانب المصلحي:

٢-وقد تصبح بعض الأفكار والآراء مصدراً لكسب ومصلحة مادية، من مال أو جاه أو منصب، فيتشبث بها المنتفع منها، لا لثبوت صحتها وأحقيتها عنده، بل لما تجلبه من مصلحة، ثم ومن ذات المنطلق يتحمس للدفاع عنها والترويج لها.

وفي بعض الأحيان يكون الجانب المصلحي في فكرة ما هو التبرير لواقع أو حالة يعيشها الفرد، ويرغب في استمرارها، فينشأ إنسجام بين رغبة الفرد وتلك الفكرة التبريرية.

٣- وقد يتبنى الإنسان فكرة ما ضمن ظرف من الظروف، وعلى أساس مبررات معينة، ثم يتبين أنها فكرة خاطئة، إما لأنها خطأ من الأساس، أو لأن تطورات حصلت ألغت مبرراتها، أو لظهور ما هو أفضل منها، كما هو الحال في النظريات العلمية التي تتراكم وتتطور مع تقدم العلم، فتنسخ ما قبلها، أو تكون أكمل منها.

لكن البعض من الناس يصعب عليه التخلي عن فكرة آمن بها رَدَحاً من الزمن، لأنه يعدها جزءاً من شخصيته وتاريخه، فكأن تركها إدانة لتاريخه وماضيه، ولأنه قد ألفها، وبرمج تفكيره ومعادلاته على أساسها، فيستثقل تجاوزها والتخلي عنها. لذلك يتمسك بها ويصر عليها، ويتعصب للدفاع عنها.

رغبة التوافق الاجتماعي:

٤-ومن أسباب فقدان الموضوعية، في التعامل مع الأفكار، رغبة المحافظة على التوافق الاجتماعي، فإذا كانت البيئة الاجتماعية المحيطة بالإنسان، ذات اتجاه فكري معيّن، فإن الفرد يتهيّب مخالفة مجتمعه، ويخشى العزلة عنه، وتشتد هذه الهيبة والخشية عندما تسود المجتمع أجواء ضاغطة، تقمع أي رأي مخالف، مما يخلق عزوفاً عند الفرد، من التفكير خارج ما هو سائد ومألوف، واستسلاماً لحالة العقل الجمعي، حسب نظرية (جوستاف لوبون) التي تنصهر في بوتقتها عقول الأفراد، وتفقد ثقتها بذاتها، وقدرتها على الاستقلال في الرأي والموقف.

ولعل في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ (1)، إشارة إلى هذه الحالة، فإن كثيراً من أبناء قريش، كانوا يرفضون الانفتاح على دعوة الإسلام، خضوعاً للجو السائد المضاد، الذي صنعه زعماؤهم تجاه الرسول ﷺ، واتهامه بأبشع الأوصاف كالجنون، لذلك كان الرسول ﷺ يدعو أفرادهم للاستقلال بالرأي، والتفكير خارج هذا الجو الجمعي المضاد﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

كما أن آيات عديدة في القرآن الكريم تنبّه الإنسان وتحذره من الخضوع للتيار العام، على حساب الحق، بأن يجمّد عقله، ويعطل فكره، وينساق مع الحالة السائدة.

إن أحد أسباب الهوي في نار جهنم هو هذه المنهجية الخاطئة، حيث أجاب الساقطون فيها عن سؤال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (2) بإجابات منها: ﴿كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (3). وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (4)، ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (5)، تأتي هذه الآيات وأمثالها في سياق تصليب إرادة الفرد للبحث عن الحق، وامتلاك الجرأة على إتباعه، في مقابل ضغوط البيئة والمحيط الاجتماعي.

التقديس والإنبهار:

من الطبيعي أن تحظى بعض الشخصيات المتميزة بموقعية كبيرة في نفس الإنسان، وأن

(1) سورة سبأ: آية ٤٦.
(2) سورة المدثر: آية ٤٢.
(3) سورة المدثر: آية ٤٥.
(4) سورة المؤمنون: آية ٧٠.
(5) سورة الأنعام: آية ١١٦.

يمنحها الكثير من ثقته وولائه، لما يلحظه من إخلاصها الديني، أو إنجازها العلمي، أو دورها الاجتماعي، لكن ذلك لا يصح أن يتحول إلى تبعية عمياء، وتقديس مطلق، وإنبهار يفقد الإنسان ثقته بعقله، ويسلبه القدرة على النظر والتفكير.

إن أي شخصية بشرية مهما عظمت – عدا المعصومين الذين منحهم الله مقام العصمة – لا تمتلك الكمال المطلق، فهي معرضة للخطأ، بقصد أو بغير قصد، وقد تتبنى فكرة أو موقفاً ضمن ظرف معيّن، أو مبررات خاصة، لكن ذلك يتحول في نظر الأتباع المنبهرين إلى صواب مطلق، وحق دائم.

ولن يجدي الإنسان يوم القيامة اعتذاره باتباع الزعامات، إن لم يكن ذلك وفق الضوابط الصحيحة. لذلك يتحدث القرآن عن هذا الموقف الخاطئ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [1].

وحينما جاء الحارث بن حوط مضطرباً حول موقف أصحاب الجمل، وطرح على الإمام علي عليه السلام سؤاله الصارخ قائلاً: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ إنهم شخصيات عظيمة مقدسة في نظره، فكيف يمكن اتهامهم بالخطأ؟ أجابه الإمام علي عليه السلام بمنطق الإسلام والعقل: ((يا حارث، إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت. إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه)) [2].

أما موضوع تقليد الفقهاء المجتهدين فذلك في حدود الأحكام الشرعية الفقهية، باعتبار خبرتهم وتخصصهم، والعقل يرشد الإنسان إلى الأخذ برأي الخبراء في مجالات خبرتهم، مع اشتراط عدالة الفقيه. قال السيد اليزدي في العروة الوثقى: ((محل التقليد ومورده هو الأحكام الفرعية العملية، فلا يجري في أصول الدين، ولا في مسائل أصول الفقه، ولا في مبادئ

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٦٧.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، قصار الحكم ٢٦٢.

الاستنباط من النحو والصرف ونحوهما، ولافي الموضوعات المستنبطة العرفية أو اللغوية، ولا في الموضوعات الصرفة))[1].

احترام العقل:

إن احترام العقل يستوجب عدم التدخل العاطفي في ميدان عمله، وعدم إرباك حركته الفكرية بالميول والانفعالات، وإذا كانت العواطف والأحاسيس تسعى لفرض هيمنتها على شخصية الإنسان، فإن عليه اليقظة والحذر حتى لا تتغلب عواطفه على عقله فتقوده إلى الخطأ والانحراف.

إن الموضوعية والتجرد في التفكير مهمة صعبة شاقة، لما للعواطف والأهواء من دور ضاغط، وتأثير عميق، لكن المطلوب من الإنسان الواعي، التسلح بالإرادة الكافية، للانتصار لعقله. ومن مهام الدين الأساس رفع معنويات الإنسان، وتصليب إرادته، في مقابل الأهواء والعواطف. حتى يتعامل مع أي فكرة أو موقف بموضوعية وتجرد، دون انحياز مسبق.

ويسمي بعض المفكرين الغربيين الهوى بـ(التحيز) ويعرفون التحيزات بأنها: (طرائق في التفكير تقررها سلفاً قوى ودوافع انفعالية شديدة كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة، وارتباطاتنا الاجتماعية).

ويقول جوزيف جاسترو : ((إن الهوى هو الحكم على شيء مقدماً، وفي أثناء عملية الاستدلال يجعلنا نتجاهل بعض الوقائع، ونبالغ في تقدير بعضها الآخر ميلاً منا نحو نتيجة معينة في ذهننا منذ البداية)).

(١) اليزدي: السيد محمد كاظم/ العروة الوثقى، الاجتهاد والتقليد، مسألة ٦٧.

الحوار للمعرفة والسلام

حينما تتعدد الآراء وتتعارض الأقوال حول قضية معينة فلا يمكن أن تكون كلها صحيحة صائبة، نعم يمكن أن تتفاوت درجة الصحة في عدد من الآراء، يحمل كل منها نسبة معينة من الصواب.

وإذا كان الإنسان يستهدف الحقيقة، ويسعى مخلصاً لإدراكها فإن عليه أن يبذل جهداً كافياً لتمحيص الآراء المتعارضة، ودراسة الأقوال المختلفة، معتمداً على عقله الذي حباه الله تعالى قدرة التمييز بين الصحيح والخطأ، بين الحق والباطل، بين الخير والشر.

شريطة أن يعمل العقل بحرية واستقلال، بعيداً عن تداخلات الأهواء، وضغوط المصالح والشهوات.

وهنا لا بد أن تفتح كل الملفات المتعلقة بالقضية أمام العقل، وأن لا يحجب عنه شيء من المعلومات والآراء الواردة، تماماً كما يحرص القاضي النزيه، على الاطلاع على ملف أي قضية ينظر فيها، بشكل كامل، وأن يسمع شهادات الشهود مباشرة، ويلتقي مع أطراف القضية مورد النزاع، ليحكم فيها بعد ذلك بعلم وثقة.

إن كثيراً من الناس يخونون عقولهم، بمنعها وحجبها عن الاطلاع على الرأي الآخر، ومعرفة أدلته ومبرراته، مع احتمال أن يكون الرأي الآخر هو الحق، أو فيه نسبة من الحق.

وذلك بسبب وجود بعض الدوافع الشهوانية والمصلحية، التي تشيع الغرور الزائف والثقة الساذجة بما لديه من رأي، أو ما يرغب فيه من موقف، فتصرفه عن البحث والتقصي.

إن القرآن الكريم يحذِّر الإنسان من الاسترسال في ثقته الساذجة برأيه ونهجه، دون بحث موضوعي، فيصبح في مهاوي الضلال، وهو يتصور نفسه على أفضل عقيدة، وأصح طريق.

إنها أفظع خسارة يلحقها الإنسان بنفسه نتيجة غروره وتقصيره في البحث عن الحقيقة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[2].

ومن أهم سبل البحث الموضوعي عن الحق، الانفتاح على الرأي الآخر ومحاورته، وللحوار أكثر من قيمة ودور على الصعيد المعرفي.

مراجعة الرأي:

فالحوار يدفع للمراجعة وأن يتفحص الإنسان آراءه ومواقفه في معرض حواره مع الآخرين، ومواجهته لتساؤلاتهم ونقدهم، فيتأكد حينئذٍ من صحة رأيه، وثباته أمام الاعتراض، وقد يكتشف بعض الثغرات ونقاط الضعف في وجهة نظره من خلال الحوار، فيسعى لمعالجتها وتجاوزها، ليكون الرأي أكثر قوة وتماسكاً. و قد يتضح له خطأ رأيه، فيستنهض إرادته وعزمه للتخلي عنه واعتناق الصواب. إن كثيراً من الناس يعيشون الاسترسال مع آرائهم ومواقفهم، في حالة من الجمود والركود، ويتصورونها مسلمات قطعية لا مجال فيها للأخذ والرد، بل ويستغربون من وجود رأي مخالف لها. كما ينقل القرآن الكريم عن المشركين استغرابهم من نفي رسول الله ﷺ لتعدد الآلهة ودعوته لتوحيد الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[3]، والحوار هو الذي يحرك راكد

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣- ١٠٤.
(٢) سورة فاطر: آية ٨.
(٣) سورة ص: آية ٥.

فكر الإنسان ويجدد نشاطه وحركته المعرفية.

معرفة الرأي الآخر:

ويتيح الحوار للإنسان فرصة الاطلاع على الرأي الآخر، بشكل مباشر واضح، فعادة ما يصاحب الاختلافات الفكرية، صراعات ونزاعات، تؤدي إلى التعتيم على رأي كل طرف في ساحة الطرف الآخر، وتشويهه، وتحريفه، ونقله مبتوراً مضطرباً.

وحينما يطلع الإنسان على الرأي من منابعه، وينفتح على مصادره، ويناقش أصحابه مباشرة، تكون الرؤية أمامه أوضح وأجلى.

وكم هو مؤسف هذا العجز والقصور الذي تعيشه مجتمعاتنا، حيث تنعدم فيها مبادرات الحوار بين الأطراف المختلفة، فتكون صورة كل طرف غير جلية أمام الطرف الآخر، ويعيش الناس في منطقة واحدة وبلد واحد، قريبين متجاورين بأبداهم وأجسامهم، لكنهم على صعيد الآراء والتوجهات، يبدون وكأن مسافات شاسعة واسعة تفصل بينهم، وتحول دون تلاقيهم وتحاورهم.

إهم يتحدثون عن آراء بعضهم البعض، وكأن كل طرف منهم ينتمي إلى عصر آخر، أو قارة أخرى.

وأذكر – مثلاً – أني التقيت مرة أحد المتدينين المثقفين من منطقة السلمية في سوريا، وهي مركز الطائفة الإسماعيلية هناك، فسألته عن آرائهم وتوجهاتهم المعاصرة، فاعتذر بمحدودية معلوماته عنهم، عدا ما قرأه في بعض الكتب من مصادر مناوئة لهم، ومن انطباعات حولهم متوارثة من الآباء والأجداد، حيث لم يجد في نفسه دافعاً للالتقاء بقياداتهم، والاطلاع على آرائهم مباشرة عن طريق البحث والحوار.

وتعبر هذه الحالة عن وضع عام نعيشه في مجتمعاتنا تجاه بعضنا البعض حين تتعدد الاتجاهات الدينية والفكرية والسياسية.

الحوار للدعوة والإقناع:

وإذا كان الإنسان مهتماً بتعزيز موقعية الرأي الذي يتبناه، والدعوة له والتبشير به، فإن الحوار مع الآخرين هو أفضل الطرق لكسبهم وإقناعهم، أو على الأقل لتحييدهم، ولإعطائهم صورة واقعية بدل أن تصلهم صورة مشوهة ناقصة من جهات أخرى.

لقد اعتمد الأنبياء منهجية الحوار في عرض رسالتهم على أقوامهم، وفي نقد اتجاهات الكفر والفساد لدى تلك الأقوام، وينقل القرآن عن قوم نوح عليه السلام أنهم ضاقوا ذرعاً بنقاشاته المكثفة لهم وحواراته معهم، يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ (1).

كان نبي الله نوح عليه السلام يحذرهم الهلاك والشقاء باستمرارهم في طريق الكفر والعناد، وفي قولهم هذا يبدون الاستعداد لتحمل مضاعفات كفرهم، مغلقين أمامه أبواب الحوار والنقاش.

ومرة أخرى هددوه بالتصفية الجسدية بأبشع طريقة وهي الرجم أي قذفه بالحجارة حتى يموت، إذا لم يتوقف عن فتح النقاش معهم. يقول تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ﴾ (2).

وتتكرر في آيات القرآن الكريم صور ومشاهد كثيرة عن حوارات الأنبياء مع أقوامهم وأممهم، لتؤكد الحوار كمنهج للدعوة وتبليغ الرسالة.

ففي قصص نبي الله إبراهيم عليه السلام في الذكر الحكيم ورد مشهد حواره مع أبيه، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (3) إلى بضع آيات في

---

(1) سورة هود: آية ٣٢.

(2) سورة الشعراء: آية ١١٦.

(3) سورة مريم، آية ٤٢.

السورة الكريمة لتسجيل هذا المشهد الحواري.

وفي موارد أخرى، جاءت حواراته مع قومه كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1]. بل ذهب إلى طاغية عصره (نمرود) ليدخل معه حواراً جادّاً حول دعوته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[2].

وهكذا يتحدث القرآن عن سائر الأنبياء كموسى وعيسى وشعيب ولوط وصالح وغيرهم عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، في طرحهم لرسالتهم عن طريق الحوار والنقاش.

كما أفرد القرآن الكريم مساحة واسعة للحديث عن جهود النبي محمد ﷺ في تبليغ الرسالة بالتخاطب مع المشركين واليهود والنصارى، ومحاوراتهم والرد على إشكالاتهم وتساؤلاتهم، كما ينقل لنا تاريخ الدعوة الإسلامية كيف كان ﷺ يعرض نفسه على القبائل، مبيناً دعوته، مدافعاً عن رسالته بالحكمة والموعظة الحسنة.

حركة المعرفة:

يساهم الحوار في تنشيط حركة المعرفة والثقافة في المجتمع، ويدفع الناس للتفكير والبحث والمقارنة، وقد تترشد الاتجاهات المتحاورة من خلال الحوار، ويسعى كل اتجاه لمعالجة نقاط ضعفه، وقد تتكامل الآراء، وتتراكم التجارب المعرفية، عبر التفاعل الحواري، وذلك مكسب لساحة المعرفة والثقافة، ولبلورة الآراء والأفكار وإنضاجها.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٦٩- ٧٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨.

من أجل السلام:

ويؤدي الحوار وظيفة مهمة على صعيد تحقيق الاستقرار والسلم الاجتماعي، ذلك لأن قسماً كبيراً من المشاكل والأزمات في العلاقات الاجتماعية، تنشأ من جهل الناس ببعضهم بعضاً، وتصور كل طرف للآخر على غير حقيقته، وذلك بسبب التباعد والقطيعة، أو لحدوث سوء ظن أو سوء فهم في البين، بتفسير كلام ما، أو عمل ما، تفسيراً خاطئاً، أو لوصول معلومات كاذبة لدى جهة عن الأخرى، أو لوجود دور تخريبي بإثارة فتنة في المجتمع، إنه يمكن تعطيل مفعول كل هذه الاحتمالات والمحاولات بتلاقي الأطراف المعنية، وحوارها فيما بينها، لتكتشف حقائق الأمور، وتضعها في نصابها الصحيح، وتحبط خطط السوء والفتنة.

أو على الأقل، فإن الحوار يخفف حدّة التوتر، ويمتص حالة التشنج والانفعال.

وما نراه من استقرار سياسي واجتماعي في المجتمعات الغربية، ليس لعدم وجود اختلافات بينهم في الرأي والمصلحة، ولا لعدم حدوث مشاكل وأزمات في بلدانهم، بل قد يكون التعدد والتنوع عندهم في الأعراق والديانات والمذاهب والأحزاب، أكثر مما عندنا بكثير، وتنافسهم على المصالح والمكاسب كبير، لكنهم ينعمون بوجود مؤسسات ديمقراطية على الصعيد السياسي والاجتماعي، يناقشون في إطارها الأمور، ويعالجون المشاكل، ويحتوون الأزمات، فالحوار بين وجهات النظر المختلفة والأطراف المتنافسة، أصبح جزءاً من نظام حياتهم، في الإدارة السياسية، والعمل الاجتماعي، والمؤسسات العلمية، وفي وسائل الإعلام.

بينما تفتقر أغلب مجتمعات العالم الثالث إلى أدنى فرص الحوار، لذلك تعاني من حالات الاحتقان، وتعيش أخطار التمزق والاحتراب.

الإسلام والتربية على الحوار:

حينما يتلو المسلمون القرآن الكريم، ويقرؤون فيه أن الله تعالى يحاور ملائكته حول خلق البشر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١) ويقرؤون أن الله تعالى يحاور إبليس: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ*قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٢)، ويقرؤون فيه قصص الأنبياء في محاوراتهم لمجتمعاتهم. ويقرؤون فيه أمر الله تعالى بالدعوة إلى الدين عن طريق الحوار: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣).

وحينما يتأمل المسلمون تعاليم دينهم ويجدون فيها الأمر بالتشاور وتبادل وجهات النظر: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (٤)،﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (٥)، وأن قضية صغيرة كفطام الطفل عن حليب أمه ينبغي أن يتم بالتفاهم بين الوالدين: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ (٦).

وأن الخلافات العائلية بين الزوجين إذا لم تعالج بينهما يأتي دور أسرتيهما في الحوار من أجل حل النزاع: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٢) سورة ص: الآيتان ٧٥ – ٧٦.
(٣) سورة النحل: آية ١٢٥.
(٤) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(٥) سورة الشورى: آية ٣٨.
(٦) سورة البقرة: آية ٢٣٣.

يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[1].

وحينما يتصفح المسلمون سيرة أئمة الدين فيرون منهجهم في ممارسة الحوار مع كل المستويات وفي كافة المجالات، مع الحكام، ومع أتباع الأديان الأخرى، ومع أصحاب المذاهب، ومع تلامذهم، ومع جمهور الناس وعامتهم..

وقد قام الشيخ أحمد بن علي الطبرسي، من علماء القرن السادس للهجرة، بمبادرة نافعة، إذ جمع عدداً كبيراً من حوارات رسول الله ﷺ والأئمة من آل بيته عليهم السلام في كتاب ضخم تحت عنوان (الاحتجاج) طبع عدة مرات في العراق وإيران ولبنان.

حينما يقرأ المسلمون كل ذلك، فإنه يجب أن يدفعهم إلى انتهاج طريق الحوار، وأن يعتمدوه أسلوباً لحياتهم، ونظاماً في علاقاتهم الاجتماعية، لكن السطحية والشكلية في التعاطي مع قيم الإسلام وتعاليمه، جعلت حياة المسلمين في وادٍ آخر، فأصبح الطابع العام لعلاقاتهم الاجتماعية، يتصف بالتنافر والتباعد، واعتماد لغة القوة والقسوة، وسيادة حالة التشنج والخصام.

---

(١) سورة النساء: آية ٣٥.

مهارات التفاوض والحوار

أصبح التفاوض الاجتماعي والسياسي علماً له أصوله ومناهجه ونظرياته وأساليبه، ومع أنه علم جديد آخذ في التشكل، إلا أنه يحظى باهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية، لتعلقه بقضايا جوهرية ومهمة لبناء المجتمعات على النحو الأفضل، وتفعيل عملية التواصل داخل المجتمعات وفيما بينها على المستوى العالمي.

فقد تشابكت مصالح بني البشر، وأصبحوا يعيشون في قرية كونية واحدة، مع تنوعاتهم المختلفة، واشتداد حدة التنافس فيما بينهم كأفراد ومجتمعات على المواقع والمكاسب والمصالح.

مما يجعلهم بحاجة أكبر إلى تطوير قدراتهم على التفاهم، والتوفيق بين الإرادات المتنافسة، والتوجهات المختلفة، تجنباً للأزمات، وتفجير الصراعات والنزاعات.

وتنعكس آثار هذا العلم ونتائج بحوثه على ميادين كثيرة من النشاط الإنساني الاجتماعي، حيث يستفيد منه السياسيون في مجال المفاوضات الدبلوماسية، ورجال المال والأعمال في صفقاتهم الاقتصادية، والإداريون لإنجاح مهامهم القيادية، وسائر الحقول والميادين التي تتعدد فيها الإرادات والقوى.

لقد تأسست معاهد في أمريكا وأوربا واليابان وغيرها، متخصصة بأبحاث تطوير هذا العلم، وإقامة دورات تدريبية لتنمية مهارات التفاوض، وإدارة الحوار.

يتحدث الدكتور حسن محمد وجيه في كتابه (مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي) عن مشروع جامعة هارفارد لدراسة العمليات التفاوضية المختلفة، باعتباره من

أكبر المشروعات في العالم في هذا الميدان، ويستهدف المشروع تنمية وتطوير طرق ووسائل ومهارات التفاوض والوساطة من أجل معالجة المشاكل القائمة في المجتمع الأمريكي، والمفاوضات السياسية الدولية.

وأعضاء المشروع أساتذة في جامعة هارفارد، ومجموعة من الأساتذة المهتمين بالتنظير في التفاوض من معهد الـ M.I.T، وجامعة T.U.F.T. كما يستضيفون عدداً من الزائرين.

وتنصب جهود القائمين على المشروع على الإسهام في بناء نظريات للتفاوض، وعلى تقديم وتطوير برامج تدريبية للتفاوض في المجالات المختلفة، كإعداد برامج خاصة للمحامين، ولرجال الأعمال، وللعسكريين، وللدبلوماسيين، وللصحفيين، ولموظفي الحكومة.

وكذلك إعداد دورات خاصة على مستوى طلاب الجامعات ومرحلة الدراسة الثانوية بالولايات المتحدة.(١)

إن توفّر هذه المشاريع البحثية والتدريبية في تلك المجتمعات، يُعدّ رافداً مهمّاً لتكريس ثقافة الحوار عندهم، واعتمادها لغة تخاطب رئيسة بين الإرادات المختلفة، والآراء والانتماءات المتعددة، والمصالح المتنافسة.

الخيار الصحيح:

إن البديل عن الحوار والتفاوض عند الاختلاف والتنافس، هو أحد خيارين:

إما هيمنة إرادة معينة وخضوع الآخرين لقوتها، لكن مع شعور بالغبن، وتحفّز للانتقام والثأر، مما يجعل العلاقة بين الطرفين قلقة حذرة، تنعدم في ظلها فرص التعاون البنّاء، والانسجام الوثيق.

وإما سيادة ثقافة التناحر والتغالب، التي تكرّس انغلاق كل طرف على ذاته، واهتمامه

---

(١) وجيه: الدكتور حسن محمد/ مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي ص٥٠، عالم المعرفة ١٩٠، الكويت ١٩٩٤م.

بالتحشيد والتعبئة ضد الآخر، حتى تجد الأطراف نفسها في مأزق حرب ونزاع قد يصعب عليها الخروج منه.

ولا شك أن التفاوض والحوار هو الخيار الصحيح، والبديل الأفضل، لأنه يعني اعتراف الأطراف ببعضها، ورغبتها في الوصول إلى توافق مشترك، يتيح لها فرصة التعارف المباشر، وتحديد نقاط الاتفاق ومواقع الاختلاف.

وإذا كان الحوار هو سمة الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات المتقدمة، فإن حضوره ودوره في مجتمعاتنا لا يزال محدوداً باهتاً.

وقد دفعنا -ولا نزال- ثمناً باهظاً لغياب الحوار الفاعل عن أجوائنا، يتمثل في الحروب بين الدول والحكومات، وفي الاضطرابات السياسية والأمنية الداخلية، وفي الصراعات القومية، والفتن الطائفية، والنزاعات الفئوية.

وحتى على المستوى العائلي والأسري فإن كثيراً من حالات التفكك والضياع ناتجة عن أسلوب الهيمنة والقمع، وغياب أسلوب التفاهم والحوار.

أزمة الحوار:

لكن أزمة الحوار في مجتمعاتنا لا تتمثل في غيابه فقط، وإنما أيضاً في سوء إدارته غالباً عند من يمارسونه.

وهنا تظهر قيمة البحوث والبرامج المعدة لتنمية مهارات التفاوض والحوار، وتتجلى أهمية أخلاقيات الحوار التي تتحدث عنها النصوص الدينية من آيات وروايات.

إن الإدارة السيئة للحوار قد تنتج مضاعفات عكسية، فتوسع هوّة الخلاف، وترفع درجة التشنج، وتزيد حالة التنافر والصراع.

وقد رأينا عبر بعض الفضائيات العربية برامج للحوار السياسي والمذهبي والفكري، بين الاتجاهات المختلفة، في العالم العربي والإسلامي، يفتقر أكثرها مع الأسف لبديهيات

أخلاقيات الحوار، ومبادئ النقاش العلمي الموضوعي، حيث تتعالى الأصوات، ويقاطع كـل طرف كلام الآخر، وتتهم النيات، ويتبادلون السباب والشتائم، ويتفننون في تعبئة الأتبـاع وتحريضهم.

والأسوأ من ذلك ما يدور على شبكة الإنترنت مما يندى له الجبين، وخاصة بين المواقع المذهبية الطائفية من السُّنة والشيعة، حيث تطرح المواضيع الخلافية بطريقة صدامية حـادة، وبأسلوب طفولي مبتذل، يكفر فيه كل طرف الآخر، ويفتي بهدر دمه، وإباحة ماله وعرضه.

إن الحوار بهذه الطريقة لا يوصل إلى نتيجة مفيدة، بل يزيد الطين بِلَّة، ويقدّم عن الأمة صورة مشوهة للآخرين، تفيد أعداء الإسلام الذين يروجون عن الإسلام أنه يشجع علـى العنف والإرهاب، ويربي على الكراهية والحقد، ويرفض التعايش واحترام حقوق الإنسـان، ويمكنهم عرض هذه المشاهد من الحوارات المتشنجة كدليل على عدم قدرة المسلمين علـى التعايش فيما بينهم، وسعي كل طرف منهم لإلغاء الآخر وسحقه، فضلاً عن قدرتهم علـى التعايش مع الآخرين واحترام حقوقهم!!

أخلاقيات الحوار:

من الطبيعي أن يحفل تراثنا الإسلامي بالكثير من المفاهيم والتعاليم المرتبطة بأسـاليب الحوار وطرقه الصحيحة، ذلك أن الإسلام إنما شق طريقه إلى الناس عبر الحوار، حيـث لم يكن رسول الله ﷺ يمتلك في مكة عند بداية الدعوة قوة ولا ثروة ولا منصباً، وكانـت الأجواء العامة رافضة لدعوته، لكنه استطاع بقوة منطقه، وثبات حجته، وعبر أسلوب الحوار الناجح أن يقنع الآخرين، ويستقطبهم إلى جانب الدين الجديد.

ولم يرتضِ الإسلام القوة والفرض وسيلة لإدخال الناس في الدين، ذلك أنه ﴿لاَ إِكْـرَاهَ

﴿فِي الدِّينِ﴾ [1]. بل اعتمد منهجية الدعوة بالمنطق والحوار الهادئ، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [2].

والجدال بالتي هي أحسن، يعني النقاش والحوار بأفضل أسلوب، وينهى القرآن الكريم عن مناظرة الآخرين والحوار معهم إلاّ بأفضل الطرق والأساليب، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [3].

و من يقرأ السيرة النبوية، ويتأمل مواقف رسول الله ﷺ وتخاطبه مع الآخرين، من مشركين ويهود ونصارى، يجد أفضل النماذج التطبيقية لأحسن أساليب التفاوض والحوار.

وعلى هديه ﷺ سار الأئمة الأطهار من أهل بيته، والصحابة الأخيار، في نشر رسالة الدين، والدعوة إلى مبادئه وأحكامه، عن طريق الكلمة الطيبة، والحوار السليم.

ويمكننا أن نتلمس بعض السمات والمعالم لأخلاقيات الحوار في تراثنا الإسلامي عبر النقاط التالية:

الهدف النبيل:

لماذا يناظر الإنسان الآخرين؟ ولماذا يحاورهم؟

إذا كان الهدف هو البحث عن الحقيقة، أو مساعدة الآخرين لاكتشافها، فهو هدف نبيل.

وإذا كان الحوار من أجل الوصول إلى فهم متبادل، ليعرف كل طرف ما لدى الآخر، فتتبين موارد الاتفاق، ونقاط الاختلاف، تأسيساً لعلاقة واضحة، وتعايش مشترك، فهو مقصد محمود.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

أما إذا كان التناظر والحوار من أجل إظهار الغلبة، وإفحام الطرف الآخـــر، وممارســـة الجدل للجدل، فتلك غاية سيئة، والحوار حينئذٍ عقيم غير منتج.

ولعل هذا النوع من الجدل، الذي ينطلق من ذات متضخمة، تستهدف الغلبة بأي وسيلة وثمن هو ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْـــرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[1].

وتطلق النصوص الدينية على هذا النوع من الحوار والجدل مصطلح (المـــراء)، وتحـــذّر الأحاديث والروايات، من انتهاج مسلك (المراء) بأن يجادل الإنسان من أجل الغلبة لا مـــن أجل غاية صالحة، حتى وإن كان ما يجادل حوله حقّاً.

روى الإمام علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محق، وحتى يدع الكذب في الممازحة، ولو شاء لغلب))[2].

فهو محق، ويستطيع بجداله الانتصار على الطرف الآخر، ((ولو شاء لغلب)) لكن الغلبة هنا لا هدف لها إلاّ الاستجابة لتضخيم الذات، وتحقيق الأنا، وذلك ما لا يستهدفه مـــؤمن صادق الإيمان.

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((من ترك المراء وهو محق بـــنى الله لـــه في وســـط الجنة))[3]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((أورع الناس من ترك المراء وإن كان محقّاً))[4].

وجاء رجل إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام وقال له: اِجلس حتّى نتناظر في الـــدين؟ فقال الإمام الحسين عليه السلام وقد عرف قصد الرجل: ((يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف عليّ هداي، فإن كنت جاهلاً بدينك، فاذهب واطلبه، ما لي وللمماراة؟ وإنّ الشيطان ليوســـوس

---

(١) سورة غافر: آية ٥٦.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، حديث رقم ٩٠٢٤.

(٣) المصدر السابق: حديث رقم ٩٠٢٦.

(٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢ ص ١٢٧.

للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين لئلا يظنّوا بك العجز والجهل))[1].

وفي كتابه (إحياء علوم الدين) تحدث أبو حامد الغزالي بالتفصيل عن آفات هذا اللـــون من الجدل والمناظرة، جاء في مقدمة حديثه: ((إعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف، والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة، واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخــلاق المذمومــة عنــد الله، المحمــودة عنــد عــدو الله إبليس...))[2].

وفي تصنيفها لأنواع العمليات التفاوضية، من منظور نظريات المباريات، تطلق أدبيــات علم التفاوض الاجتماعي والسياسي الحديث، مصطلح (المباراة الصفرية) على ما يقرب من هذا النوع من الجدل العقيم.

وهي العملية التفاوضية التي تتبنى منطق تعامل مفاده: لا بد أن أجعل الطــرف الآخــر يخسر كل شيء، وأن أكسب أنا كل شيء، وطبقاً لقواعد هذه المباراة فــإن المتحــاورين يؤمنون بأن إدارة الصراع الاجتماعي والسياسي لا تحتمل حلولاً وسطاً، أي أن الأمر ينبغي أن يكون إما رفضاً مطلقاً، أو قبولاً مطلقاً.. إما قاتل أو مقتول، ويمثل قرار الدخول في مثل هذه النوعية الصفرية من المباريات، النقيض التام لأي محاولة إيجابية لإدارة الحوار التفاوضي اجتماعيّاً وسياسيّاً، فمفهوم المنافسة والمسابقة طبقاً لهذه النوعية من المباريات لا يكون عادة من خلال الاستعداد والارتفاع بقدرات ومهارات الأداء التفاعلي، وبذل الجهد المطلــوب لتحقيق الهدف بطريقة شرعية وإنسانية، بل إن الفوز عادة ما يتحقق طبقاً لتلك المباريــات الصفرية من خلال تدمير وتشويه الآخر[3].

---

(١) المصدر السابق: ص١٣٥.

(٢) الغزالي: أبو حامد/ إحياء علوم الدين ج١ ص٦٨، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار الهادي- بيروت.

(٣) وجيه: الدكتور حسن محمد/ مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي ص٢٥.

أخلاقيات الحوار

لماذا تصاب أكثر الحوارات في مجتمعاتنا بالفشل؟ وتصل إلى طريق مسدود؟

ولماذا تنتهي إلى نتائج سلبية غالباً، فتزيد الغموض في موضوع الحوار، وتوسع شقة الخلاف بين المتحاورين؟

في المجتمعات المتقدمة يتحدثون عن فاعلية الحوار لديهم، بحيث تحول إلى منهج حياة، وأسلوب معالجة للمشاكل والخلافات، ووسيلة إثراء للفكر والمعرفة، فلماذا يؤدي الحوار عندنا دوراً عكسياً؟

لقد لاحظ هذه المفارقة أكثر من باحث وكاتب، يقول الأستاذ راشد الغنوشي: ((إنه من الملفت للنظر أن يجري الحوار بين غير المسلمين فيتحقق التعاون، ويتوحد الصف، بينما يصبح الحوار بين جماعات المؤمنين أكثر صعوبة، وأقل جدوى، وذلك مظهر من مظاهر التخلف))[1].

ويقول الدكتور يحيى الجمل: ((كوننا لا نعرف كيف نتفق أصبح أمراً شائعاً، ولكن المشكلة الحقيقية أننا لا نعرف كيف نختلف))[2].

إنه لا يمكن الشك في فائدة الحوار وصلاحيته وجدواه لكل المجتمعات الإنسانية، فلا يمكن القول إنه صالح لتلك المجتمعات، لكنه غير صالح لهذه المجتمعات، بل يجب البحث عن العوامل المعوّقة، التي تجهض فاعلية الحوار. ويبدو أن من أهمها ضعف ثقافة الحوار، وغياب

---

(١) الكلمة ـــ مجلة فكرية فصلية، العدد ٨ ص٣٥ عام ١٩٩٥م.

(٢) الجمل: الدكتور يحيى/ تعالوا نختلف، مجلة العربي – الكويت، نيسان (أبريل) ١٩٨٧م.

المنهجية الصحيحة لإدارته.

إن سلامة المقصد والاستهدافات من عملية الحوار ركن أساس لتحقيق نجاحه، كما سبق الحديث عن ذلك، وفيما يلي عرض لأهم الأركان الأخرى في أخلاقيات الحوار:

موضوعية البحث ومنهجيته:

لا بد أن يتحدّد أولاً موضوع البحث الذي يدور حوله الحوار، وحسب تعبير العلماء تحرير محل التراع، أي تحديد النقطة التي يُختلف فيها بالضبط، ذلك أن كل قضية من القضايا يمكن أن تناقش من لحاظات مختلفة، وزوايا متعددة، فإذا لم يتفق طرفا الحوار على منطقة البحث، فسيتناول كل منهما جانباً غير الذي يتناوله صاحبه، ويتشعب البحث، ويضيع الموضوع، ولا يصلون إلى نتيجة.

وكثيراً ما يحصل في بعض المجالس والملتقيات أن يطرح موضوع للنقاش، ثم ما يلبث أن يُحشر فيه ألف موضوع، كل واحد منها يحتاج إلى بحث خاص به.

فمثلاً حينما يكون البحث حول مفاد حديث مروي عن رسول الله ﷺ، فيجب أن تتحدد نقطة البحث، هل هي النقاش حول سنده وأنه صحيح أم لا؟ أو هي النقاش حول فهم نصه والمعنى المقصود منه؟ أو هي الاختلاف حول مورد تطبيقه وتشخيص موضوعه الخارجي؟

إن عدم التحديد يفقد الحوار منهجيته، وقد يتهم أحد الطرفين الآخر بأنه يرفض الالتزام بالسنة النبوية، والأخذ بأقوال الرسول ﷺ، بينما يكون ذلك خارجاً عن محل البحث والتراع.

من ناحية أخرى، ينبغي أن يسبق الحوار تحديد للمفاهيم والمصطلحات، ليعرف كل طرف ما يقصده الآخر، فمثلاً حينما يستدل محاور على قوله في مسألة دينية بدليل الإجماع، فإنه لا بد أولاً من تعريف مفهوم الإجماع الذي يُحتج به، هل هو إجماع مطلق الأمة، أو

خصوص المجتهدين منهم في عصر، أو هو اتفاق أهل المدينة، أو أهل الحرمين، أو هو خصوص مجتهدي المذهب، أو ما كان كاشفاً عن رأي المعصوم؟

ويمثل الاختلاف حول تحديد مفهوم الإرهاب على المستوى العالمي مثالاً واضحاً على ضرورة الاتفاق على المفاهيم، فهل مقاومة الاحتلال إرهاب؟ إن الأمريكيين ولمصلحة إسرائيل يريدون تعميم مفهوم الإرهاب، لسحق إرادة الشعب الفلسطيني وإنكار حقه في مقاومة الاحتلال.

وأخيراً، لا بد أن يحتكم الحوار إلى الأدلة والبراهين، فيقدم كل طرف أدلته الموثقة الواضحة على آرائه وأقواله، والقرآن الكريم يؤكد مرجعية الدليل والبرهان، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [1]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [2].

وعلى المحاور أن يكون موضوعيّاً فلا يرد دليلاً صحيحاً مكابرة وعناداً، ولا يستخدم المغالطة والمناورة بطرح ما ليس له حجية ودليلية كبرهان ودليل، إن الجدال والنقاش دون امتلاك دليل وبرهان، هو إضاعة وقت وجهد، وإصرار على الجهل والخطأ، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [3]. ويؤكد الإمام جعفر الصادق عليه السلام أهمية الموضوعية في الحوار، وتقديم الأدلة الصحيحة، وقبولها من الطرف الآخر، فيقول: ((أما الجدال بغير التي هي أحسن: أن تجادل مبطلاً، فيورد عليك باطلاً، فلا ترده بحجة قد نصبها الله تعالى، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقًّا يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة، لأنك لا تدري كيف المخلص

---

(١) سورة البقرة: آية ١١١.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٤٨.

(٣) سورة الحج: آية ٨.

منه))[1].

ويقول عليه السلام مرة أخرى: ((وأما الجدال بغير التي هي أحسن بأن تجحد حقًّا لا يمكنك أن تفرق بينه وبين باطل من تجادله، وإنما تدفعه عن باطله، بأن تجحد الحق فهذا هو المحـرّم، لأنك مثله، جحد هو حقًّا وجحدت أنت حقًّا آخر))[2].

إنها مسألة دقيقة يشير إليها الإمام عليه السلام، بأن يجد المحاور نفسه أمام دليل صحيح، لكنه ينكره لعدم قدرته على رده ومواجهته، إن ذلك يعتبر مكابرة وعناداً، حتى ولو كان الطرف الآخر مبطلاً، أو كان يريد توظيف الدليل في دعواه الباطلة، فإن الموضوعية تقتضي التسليم بالدليل الصحيح، ثم الاجتهاد في معالجة الاستدلال به. فمثلاً لو استشهد محـاور بحـديث صحيح، أو واقعة ثابتة، لتأييد فكرة خاطئة، و لم أكن قادراً على تفنيد استدلاله، فقد ألجأ إلى تكذيب الحديث وإنكار صحته، أو نفي الواقعة الثابتة، وهذا خلاف الموضوعية.

الاحترام المتبادل:

من أجل توفير أكبر قدر من التركيز العقلي في موضوع البحث والحوار، ولتنميـة روح الإخلاص للحقيقة لدى الأطراف المتحاورة، وتشجيع حالة المرونة للوصول إلى توافق مفيد، ينبغي أن تسود أجواء الحوار درجة عالية من التقدير والاحترام المتبادل.

ذلك أن أجواء التوتر النفسي، والاستفزاز العاطفي، التي تخلقها إساءة من هذا الطرف، ورد فعل مواز من الطرف الآخر، تعرقل موضوعية البحث، وتعكّر صفاء الفكر، وقد تمنـع استمرار الحوار، أو تحقيقه لنتائج مرضية.

وأساساً، فإن الاختلاف في الرأي لا يبرر الإساءة، كما لا يحق لأحد أن يفرض رأيـه على الآخر، وعملية الحوار تمثل سعياً من كل طرف لإقناع الآخر برأيه، وكسبه إلى جانبه،

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢ ص١٢٥.

(٢) المصدر السابق: ص١٢٦.

أو تقريبه أو تحييده، والإساءة تجعل ذلك الهدف أبعد منالاً.

لذلك، يأمر الله تعالى عباده أن يتخاطبوا مع بعضهم بأفضل عبارات التقدير والاحترام، لأن أي كلمة نابية قد تكون شرارة لفتنة وعداوة، يقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [(١)]، ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [(٢)].

وحتى في مواجهة الطاغية فرعون فإن الله تعالى يأمر نبييه موسى وهارون عليهما السلام، أن يتخاطبا معه خطاباً هادئاً جميلاً. يقول تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [(٣)].

وعند الحوار مع أصحاب الأديان الأخرى يشترط الباري جل وعلا اختيار أفضل أساليب التخاطب: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [(٤)].

إن جرح مشاعر الطرف الآخر بسبه أو شتمه أو اتهامه، أو النيل من مقدساته، يحوّل العملية من حوار وتفاوض، إلى نزاع وتخاصم، حيث يندفع الطرف الآخر للانتقام لنفسه، بالأسلوب ذاته. لذلك ينهى الله تعالى عن سبّ أصنام الكفار عند التخاطب معهم، لأن ذلك يدفعهم إلى سبّ الله تعالى كردّ فعل مقابل، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [(٥)].

حدث مرة أن وجّه أحد الصحابة إهانة لأحد المشركين في محضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنهره

---

(١) سورة الإسراء: آية ٥٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٨٣.

(٣) سورة طه: الآيتان ٤٣ – ٤٤.

(٤) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٥) سورة الأنعام: آية ١٠٨.

الرسول ﷺ وأعرض عنه. قال ابن هشام في السيرة النبوية: إن المسلمين في طـــريقهم إلى بدر لقوا رجلاً من الأعراب، فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلّم على رسول الله ﷺ، قال: أوَفيكم رسول الله؟ قالوا نعم، فسلّم عليه، ثم قال: إن كنـــت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه؟ قال له سلمة بن سلامة بن وقـــش: لا تســـأل رسول الله، وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك: نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة. فقـــال رسول الله ﷺ: مَهْ ـــ أي اسكت ـــ أفحشت على الرجل، ثم أعرض عن سلمة[1].

وعلى هدى القرآن وسيرة الرسول ﷺ فإن الإمام عليًّا حينما سمع قوماً من أصـــحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين قال لهم: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر [2].

وقد يحصل أن يسمع الإنسان المؤمن من الآخر كلاماً قاسياً تجاه العقيدة والدين، فيصدم مشاعره الإيمانية، ويستفز غيرته على مقدساته، وقد يندفع لمهاجمة الطرف الآخـــر بغضـــب وشدة، وذلك مفيد للتنفيس عن الانفعال والانزعاج الشخصي، لكنـــه لا يخـــدم الرســـالة والعقيدة، التي يكفيها قوة المنطق وثبات الحجة.

حدّث المفضل بن عمر أنه سمع ذات يوم كلاماً إلحاديًّا من ابن أبي العوجاء في مســـجد رسول الله ﷺ، يقول: فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جل قدسه... فردّ عليه ابن أبي العوجاء قائلاً: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل كلامك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنه للحليم الرزين،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٢٢٥.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة – خطبة رقم ٢٠٦.

العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، ويسمع كلامنا، ويصغي إلينا، ويستغرق حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أنا قد قطعناه، أدحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه[1].

إن الاحترام المتبادل في الحوار يعني إبداء الترحيب بالطرف الآخر، ومخاطبته باحترام، والإصغاء لكلامه، وعدم مقاطعته، وعدم تجريح شخصيته، أو إهانة رموزه ومقدساته.

وقد بلغ من آداب الوحي والنبوة في الحوار أن النبي ﷺ يخاطب الكفار بقوله: ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [2].

إنه مع ثقته ويقينه بدينه يدعوهم إلى الحوار على أساس تساوي احتمال الصحة والخطأ بينه وبينهم، وحينما يقول عن جهته: ﴿لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ يقول عنهم: ﴿وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ و لم يقل (عما تجرمون)، إظهاراً للأدب، ومراعاة للاحترام. هذه هي تعاليم الإسلام في التعامل والتخاطب مع المخالفين في الدين والسياسة، وخاصة في إطار الحوار والتفاوض، حتى يجري النقاش والبحث في جو من الاحترام المتبادل.

لكن ما نراه في واقع كثير من الحوارات في مجتمعاتنا، على العكس من ذلك تماماً، حيث تتبارى الأطراف في توجيه أقذع الاتهامات لبعضها، وأبشع الأوصاف، ففي الحوارات الدينية هنالك ابتذال في تكفير الآخر، واتهامه بالشرك والبدعة والفسق، وفي الحوارات السياسية تبادل الاتهامات بالخيانة والعمالة والإفساد والتخريب.

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٣ ص٥٧ – ٥٨.

(٢) سورة سبأ: الآيتان ٢٤ – ٢٥.

نقاط الالتقاء:

ومما يخدم أهداف الحوار، ويساعد على نجاحه، أن يبحث الطرفان عن نقاط الالتقاء بينهما، وموارد الاتفاق، ويبدآن من التأكيد عليها، والانطلاق منها لمناقشة قضايا الاختلاف.

إن ذلك يشكل أرضية للتقارب الفكري والنفسي، ويذّكر الطرفين بوجود قضية مشتركة يمكنهما التفاهم والتعاون من أجلها، وإن اختلفا فيما عداها. وهذا ما عرضه الرسول ﷺ على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، من تأكيد الأصول المشتركة للديانات الإلهية، والتعامل في ظلها بسلام واحترام. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [1].

ويأمر الله تعالى المسلمين بأن يبدأ برنامج حوارهم مع اليهود والنصارى بالتأكيد على المشتركات ونقاط الالتقاء: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [2].

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو أنه إذا كنا مأمورين كمسلمين بالبحث عن نقاط الالتقاء مع أتباع الديانات الأخرى، فلماذا نرفض استكشاف موارد الالتقاء بيننا كأمة واحدة، وأتباع دين واحد؟ ولماذا يصرّ المذهبيون الطائفيون على اجترار مسائل الخلاف بين المذاهب الإسلامية، ويجعلون منها مبرراً للفرقة والانقسام، مع أنها محدودة جانبية، ويتجاهلون مساحات الاتفاق الواسعة بين كل المذاهب الإسلامية على أصول الإيمان وأركان الإسلام؟

ولماذا يبدأ الحوار دائماً بين السنة والشيعة – مثلاً – حول ما يختلف فيه الطرفان، دون تناول ما يتفقون عليه، والانطلاق منه كأرضية مشتركة، وإطار جامع؟

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

التعددية والرأي الآخر:

ليس حتماً أن يصل الطرفان المتحاوران إلى رأي واحد، فقد يعجز كل منهما عن إقناع الآخر بوجهة نظره، وقد يفشلان في الالتقاء عند منتصف الطريق، ويبقى كل منهما متمسكاً برأيه، عن حق أو لشبهة، أو مكابرة وعناداً.

وهنا لا بد من القبول بالتعددية والاعتراف بوجود الرأي الآخر، لأن الدنيا تتسع للجميع، والحياة فيها حق مشترك، وحرية العمل والحركة متاحة لبني البشر.

هكذا أراد الله تعالى أن تكون الحياة الدنيا داراً يتمتع فيها الإنسان بحرية الإرادة والاختيار، حتى يتحمل مسؤولية قراره أمام الله تعالى. يقول تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (١)، ويقول تعالى بعد الحديث عن انقسام البشر إلى ماديين شهوانيين، ومؤمنين إلهيين: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢).

وليس من حق أحد في الدنيا أن يصادر حرية الإنسان في الاختيار، حتى الأنبياء لا حق لهم في إجبار الناس على الإيمان، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (٣)، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

إن النبي يعرض رسالته، ويدعو الناس إليها، ويحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، فمن اقتنع واستجاب دخل حظيرة الإيمان، ومن أبى وامتنع فهو يتحمل مسؤولية رفضه أمام الله تعالى، وليس للنبي به شأن. يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ

---

(١) سورة الكهف: آية ٢٩.
(٢) سورة الإسراء: آية ٢٠.
(٣) سورة الغاشية: الآيتان ٢١ – ٢٢.
(٤) سورة يونس: آية ٩٩.

إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [1].

ويبقى من لا يؤمن بالدين إنساناً له حقوقه الإنسانية، يتعامل معه بالعدل والإحسان ما لم يمارس العدوان والظلم، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [2].

أين هذه السماحة التي تبشر بها آيات القرآن الكريم، مما يمارسه بعض المتدينين، من محاولتهم فرض آرائهم على الناس بالقوة والعنف، ورفض وجود الرأي الآخر؟

إننا بحاجة إلى التأمل والتدبر أكثر في مفاهيم ديننا وتعاليمه، لكي نعرفه على حقيقته كما أنزله الله تعالى، وليس كما ورثناه، أو تعودنا ممارسته، أو ما كيّفناه حسب أمزجتنا وأنانيتنا الضيقة.

---

(١) سورة الشورى: آية ٤٨.

(٢) سورة الممتحنة: آية ٨.

التعصب والعصبية

أطلقت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا حملة إعلامية شعواء على الإسلام والمسلمين، وكأن هناك جهات ودوائر كانت تنتظر مثل هذا الحدث في تصعيد موجة العداء ضد الأمة الإسلامية، وهو أمر متوقع من المؤسسات الصهيونية، التي أقلقها استمرار وتصاعد الانتفاضة الفلسطينية، وتعاظم تأثيرها على الرأي العام العالمي، وكذلك تيارات اليمين المسيحي في أمريكا، التي لوحظ اقترابها وتناغمها وتأثرها بالادعاءات الصهيونية، وخاصة فيما يرتبط بقيامة المسيح المترتبة على إشادة هيكل سليمان المزعوم.

ولعل العنصر الأهم في المعادلة هو ما تطمح إليه السياسة الأمريكية الحالية من بسط هيمنتها ونفوذها على العالم، كقوة عظمى وحيدة منفردة، تجد في الشرق الإسلامي أفضل ساحة لتفعيل هذا الطموح عمليًّا.

وتركز هذه الحملة الإعلامية على بعض المفردات، التي تريد من خلالها تركيز انطباع وصورة سيئة قاتمة، عن الإسلام والمسلمين، ومن أبرزها مفردة الإرهاب، ومفردة التعصب. حيث صدرت تصريحات عديدة من زعماء سياسيين، وكتابات متنوعة من مفكرين وأدباء غربيين، وأعمال فنية وإعلامية، تتهم الإسلام بتشجيع الاتجاهات التعصبية، وتصف المسلمين بالتطرف والتعصب.

فقد تم طباعة ونشر عشرين كتاباً هذا العام في مريكا، واثنان من هذه الكتب من ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً وهما: (الجهاد الأمريكي: الإرهابيون الذين يعيشون بيننا) للكاتب (ستيفن ايميرسون) و (الإسلام لمتطرف يصل أمريكا) للكاتب (دانيال بايبس).

نهج التعميم والتنميط:

ليس من الموضوعية، ولا يتفق مع المنهجية العلمية، استخدام أسلوب التعميم والتنميط، في الحديث عن أمة تمثل ربع سكان الكرة الأرضية تقريباً، فإذا كانت هناك اتجاهات تعصبية في أوساط المسلمين، فإنه لا تخلو أمة من الأمم من مثل ذلك، بنسب متفاوتة، وذلك لا يبرر إتهام الأمة كلها، ولا كل مدارسها الفكرية، وكتلها الاجتماعية.

وأدنى إطلاع على ثقافة الإسلام، وعلى تاريخ حضارته المشرق، يظهر بوضوح جانب المرونة والانفتاح، وحرية الفكر والرأي، ومسلكية العدل والإنصاف، في رؤية الإسلام، وفي حياة مجتمعاته التي استوعبت مختلف الأديان والثقافات والمذاهب.

مما يثبت للباحث المنصف، في تاريخ الحضارة الإسلامية، أن التسامح والانفتاح هو الأصل، وأن ما يخالف ذلك يشكل نتوءاً وانحرافاً عن تعاليم الإسلام الصريحة، وعن سيرة لمسلمين الواعين.

نقد الذات:

من ناحية أخرى، لا يحق لنا أن نكابر، ونتستر على الاتجاهات التعصبية الخاطئة، التي تعشش في أوساط الأمة، إنه يمكن الاستفادة من برامج الأعداء في تشويه سمعتنا، للالتفات إلى نقاط الضعف التي نعاني منها، والثغرات التي ينفذ إلينا الوهن من خلالها، لنتجه إلى معالجتها، والتخلص من أعبائها.

إن التزكية المطلقة للذات، وتجاهل نقد الآخرين، مهما كانت أغراضهم منه، تحرمنا من التقدم والتطور، وتفوّت علينا فرص الإصلاح والتغيير.

إن التعصب داء وبيل، ومرض فتاك خطير، يمنع الفكر من اكتشاف الحقائق، ويفقد الإنسان القدرة على التعايش والانسجام مع الآخرين، إنه يجعل الإنسان مستمتعاً بجهله، محروماً من استثمار قدرات عقله، رافضاً للتكامل والتعاطي مع أنداده، من أبناء جنسه

ومجتمعه.

فإذا ما رأينا الأعداء يتهموننا بهذه الصفة السيئة، فلا يصح أن نقف عند حدود إدانة الإتهام ورفضه، بل علينا إلى جانب ذلك المزيد من مراجعة الذات ونقدها، والقيام بعملية مسح فكري اجتماعي، لاكتشاف ما قد تعانيه الأمة وثقافاتها من حالات إصابة بهذا المرض الخطير: التعصب. ومن ثم السعي لمعالجتها والانتصار عليها.

إن نمو اتجاهات تعصبية في الأمة يكشف عن خلل فكري، وعن مشكل اجتماعي، لابد أن يتداركه قادة الأمة المخلصون، ومفكروها الواعون، قبل أن يستشري المرض أكثر في أوصال الأمة، وتزداد أخطاره ومضاعفاته، وحتى لا تبقى مظاهر هذه الاتجاهات مستمسكات بيد أعداء الأمة، يستغلونها لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين.

معنى التعصب:

تحدثت كتب اللغة العربية بإسهاب وتفصيل عن مأخذ لفظة تعصب، واشتقاقها، واستخداماتها.

قال الصاحب بن عبّاد في كتاب (المحيط في اللغة):

عَصَبَ الأُفُقُ: يَبِسَ واحمَّر.

والمعصوب –في لغة هُذيل–: الجائع كادت أمعاؤه تيبس.

وعَصَبَ الرِّيق بالفم: يَبِسَ.

الأمر العصيب والعصوصب: أي الشديد.

والعِصابة: ما يُشدُّ به الرأس من الصداع، وما يشد به غير الرأس فهو العِصاب، فرقاً بينهما.

وحرب عصوب: شديدة[1].

ومما ذكره ابن منظور في (لسان العرب):

العَصَب: عصب الإنسان والدابة. والأعصاب: أطناب المفاصل التي تلائم بينها وتشدّها.

ولحم عصيب: صلب شديد كثير العصب.

والعِصاب والعِصابة: ما عصب به. وعَصَبَ رأسه، وعصبه تعصيباً: شدّه. واسم ما شُدَّ به العصابة. وتعصَّب: أي شد العصابة.

وعَصَبَ الناقة: شدَّ فخذيها.

والمعصوب: الجائع الذي كادت أمعاؤه تيبس جوعاً.

وعَصَبَة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه.

والعصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين.

والتعصب: من العصبية. أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم، على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

وفي الحديث: العصبُّي من يعين قومه على الظلم.

والعصَبَة: الأقارب من جهة الأب، لأنهم يُعَصِّبونه، ويعتصب بهم: أي يحيطون به، ويشتدُّ بهم. وكل شيء إستدار بشيء فقد عصب به. والعمائم يقال لها العصائب.

والعصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة.

واعصوصب اليومُ والشرُّ: إشتد وتجمّع. وفي القرآن: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

وعصب الريق بفيه: جفّ ويبس عليه[2].

نلمح فيما سبق من كلام اللغويين عدة عناصر في جذر مفردة التعصب واشتقاقاتها

---

(١) الصاحب: إسماعيل بن عبّاد/ المحيط في اللغة ج١ ص٣٤٢، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٤م – بيروت.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص٧٩٠– ٧٩٣.

واستخداماتها: منها:

١/ الشدّ (شدّ العصابة) والشدّة (عصيب: شديد) واليبس والجفاف (عصب الأفق: يبس. وعصب الريق بالفم: يبس) والصلابة (لحم عصيب: صلب شديد كثير العصب).

٢/ الإحاطة: فكل شيء استدار بشيء فقد عصب به (والعمائم يقال لها العصائب) وأقارب الرجل عصبته لأحاطتهم به.

٣/ الارتباط الثابت: فالعصبة: الأقارب.

٤/ الاستقواء والمحاماة والمدافعة: (فالعصبية والتعصب المحاماة والمدافعة). و (أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم).

هذه الملامح في المعنى اللغوي، نرى انعكاساتها واضحة في الاستخدام الاصطلاحي لكلمة التعصب، حيث تطلق على الأشخاص الذين يتصفون بالشدة والقسوة، في أحكامهم وتصرفاتهم مع الآخرين، والذين تأسرهم وتحيط بهم فكرة معينة لا يتجاوزونها، ويرتبطون بها دون أي احتمال للانفكاك عنها، ويعيشون حالة الاستنفار المطلق، للمدافعة والمحاماة عن فكرتهم وموقفهم، خطأً أو صواباً.

تعريف التعصب:

ظهر مفهوم التعصب كمشكلة في علم النفس الاجتماعي، في العشرينيات من القرن العشرين، وفي حين تدرج تيار البحوث ببطء خلال الثلاثينيات، وبداية لأربعينيات، فلم يشهد تاريخ البحث في هذا الموضوع تصاعداً فجائياً في إعداد البحوث حوله إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

ويرى الدكتور (جون دكت) أستاذ علم النفس في جامعة كيب تاون: أنه قد يكون الانتشار الواسع للتعصب أحد الأسباب المفسرة لماذا لم يظهر الاهتمام تاريخيّاً بالتعصب، سوى في العصر الحديث، كظاهرة تستحق الدراسة العلمية؟ ففيما مضى، كان الناس بما فيهم

المهتمون بالعلوم الإنسانية، يميلون للنظر إلى التعصب والتمييز بين الناس، باعتباره أمراً طبيعيًّا وعاديًّا في الأساس[1].

وقد عالج علماء الأخلاق المسلمون في بحوثهم، موضوع التعصب والعصبية، على ضوء النصوص الدينية، ولكنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً في وضع تعريف علمي محدد لمفهومه، بل تناولوه غالباً من خلال مظاهره وأعراضه السلوكية.

أما الباحثون في علم النفس الاجتماعي، فقد تعددت وتنوعت تعريفاتهم كثيراً لمفهوم التعصب، لأنه بناء معقد، ويشمل تعريفه مشكلات متنوعة، فظهر نتيجة لذلك عدد كبير من التعريفات المتباينة. حتى إفترض (ميلنر) أنه (توجد تعريفات للتعصب بعدد كل من استخدم هذا الاصطلاح) [2].

يرى (اولبورت) أن أكثر تعريفات التعصب إيجازاً هو: ((التفكير السيئ عن الآخرين دون وجود دلائل كافية)) [3].

وجاء في القاموس الإنكليزي الجديد في تعريف التعصب أنه: ((مشاعر التفضيل أو عدم التفضيل تجاه شخص أو شيء ما دون سابقة للخبرة، أو لا تقوم على أساس الخبرات الفعلية)) [4].

وعرفه الدكتور حسن حنفي بقوله: ((التعصب هو الانحياز التحزبي إلى شيء من الأشياء فكرة أو مبدأ أو معتقد أو شخص، إما مع أو ضد، والتعصب للشيء هو مساندته ومؤازرته، والدفاع عنه، والتعصب ضد الشيء هو مقاومته)).

---

(١) دكت: الدكتور جون/ علم النفس الاجتماعي والتعصب، ترجمة الدكتور عبد الحميد صفوت ص٨٢، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م – القاهرة.

(٢) المصدر السابق: ص٥٠.

(٣) سيد عبد الله: الدكتور معتز/ الاتجاهات التعصبية ص٤٩، عالم المعرفة ١٣٧، الكويت ١٩٨٩م.

(٤) المصدر السابق: ص٩٠.

وقال بعض علماء النفس: ((التعصب يعبر عن نوع من الانحياز والدفاع عن مسألة تحت تأثير العواطف، بدون الاستفادة من الفكر والعقل)).

انقسام التعصب:

انطلاقاً من المعنى اللغوي، وعلى أساس بعض التعريفات العامة للتعصب، بأنه مطلق الانحياز لشيء ما، والدفاع عنه، فقد فرّق العلماء المسلمون القدامى بين نوعين من التعصب، تبعاً لنصوص دينية، نوع مذموم من التعصب، وآخر محمود مطلوب.

والنوع الأول: وهو الانحياز لشيء والدفاع عنه دون مبرر معقول، وهو ما يتبادر إلى الذهن غالباً عند إطلاق كلمة التعصب، أما النوع الثاني: فهو الانحياز لشيء والدفاع عنه انطلاقاً من معطيات موضوعية واقعية.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: ((فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور...فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبرّ، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل..)).[1]

حيث يدعو الإمام للانحياز إلى القيم الفاضلة، والتمسك بها، والدفاع عنها، فهذا الانحياز تعصب مطلوب.

وفي هذا السياق سئل الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن العصبية؟ فقال: ((العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم)).[2]

فليس كل انحياز خطأ، بل الانحياز للخطأ هو الخطأ.

ولتوضيح مصاديق انقسام التعصب يقول الشيخ المجلسي:

---

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خطبة ١٩٢.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٣٠٨ باب العصبية، حديث٧.

التعصب المذموم في الأخبار هو: أن يحمي قومه أو عشيرته أو أصحابه في الظلم والباطل، أو يلج في مذهب باطل، أو ملة باطلة، لكونه دينه أو دين آبائه أو عشيرته، ولا يكون طالباً للحق، بل ينصر ما لا يعلم أنه حق أو باطل، للغلبة على الخصوم، أو لإظهار تدرّبه في العلوم، أو اختار مذهباً ثم ظهر له خطاؤه فلا يرجع عنه، لئلا ينسب إلى الجهل أو الضلال. فهذه كلها عصبية باطلة مهلكة، توجب خلع ربقة الإيمان...وأما التعصب في دين الحق والرسوخ فيه، والحماية عنه، وكذا في المسائل اليقينية، والأعمال الدينية، أو حماية أهله أو عشيرته، بدفع الظلم عنهم، فليس من الحميّة والعصبية المذمومة، بل بعضها واجب.[١]

وتأكيداً لهذا التمييز بين نوعي التعصب، اختار الشيخ الحر العاملي في موسوعته الحديثية (وسائل الشيعة) للباب الذي جمع فيه الأحاديث حول التعصب، اختار العنوان التالي: باب تحريم التعصب على غير الحق.[٢] للإيحاء بمشروعية التعصب للحق.

التعصب والعصبية في النصوص الدينية:

لم ترد في القرآن الكريم كلمة التعصب والعصبية، لكنه يمكن ملاحظة الحديث عن التعصب والعصبية كمفهوم في آيات من القرآن الكريم، بمصطلحات رديفة، كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.[٣]

والحميّة: الأنفة أي الاستنكاف من أمر لأنه يراه غضاضة عليه، وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له.[٤] ويقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصب المقرون بالغضب حميّة

---

(١) المجلسي: الشيخ محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٨٣- ٢٨٤.

(٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ وسائل الشيعة ج١٥ ص٣٧٠، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، الطبعة الأولى ١٩٩٣م - بيروت.

(٣) سورة الفتح: آية ٢٦.

(٤) ابن عاشور: محمد الطاهر/ التحرير والتنوير ج٢٦ ص١٦٣.

أيضاً.[1]

لقد أصرت قريش على منع رسول الله ﷺ والمسلمين من الدخول إلى مكة لأداء شعائر العمرة، وزيارة البيت الحرام، في السنة السادسة للهجرة، وقد أحرموا وساقوا معهم الهدي، ومنطلق إصرار قريش، هو التعصب بجهل، حميَّة جاهلية.

كما يمكن استشفاف مفهوم التعصب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾[2].فمن أخطر صفات النفاق والانحراف أنه أمام الدعوة إلى القيم الصالحة يتمسك بموقفه الخاطئ، تعصباً ولجاجاً، حتى لا يبدو وكأنه انهزم وتراجع عن رأيه وموقفه السابق، إنه تظاهر بالقوة والعزة، وفي الواقع سقوط في أوحال الإثم والشقاء.

وفي السنة النبوية الشريفة جاءت أحاديث عديدة، تحذّر من الابتلاء بمرض العصبية والتعصب الفتاك، روى جبير بن مطعم عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية))[3].

ولتقرير أن العصبية المذمومة هي الانحياز للخطأ، ورد عن بنت وائلة بن الاسقع، عن أبيها: قال: قلت: يا رسول الله ما العصبية؟ فقال ﷺ: ((العصبية أن تعين قومك على الظلم))[4].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من تعصَّب أو تُعصّبَ له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه)[5].

وعنه أيضاً عن رسول الله ﷺ: ((من كان في قلبه حبَّة خردل من عصبية بعثه الله يوم

---

(١) الشيرازي: ناصر مكارم/ الأمثل ج١٦ ص٤٤٢.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٠٦.
(٣) المتقي الهندي: كنز العمال، حديث رقم ٧٦٥٧.
(٤) المصدر السابق: حديث رقم ٧٦٦٤.
(٥) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص ٣٠٨.

القيامة مع أعراب الجاهلية))[1].

وعن محمد بن مسلم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((من تعصب عصبه الله بعصابة من نار))[2].

ويعتبر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن إبليس هو مؤسس الاتجاهات التعصبية، يقول عليه السلام: ((إبليس اعترضته الحميّة، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعـدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية))[3].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشريف الرضي/ نهج البلاغة، خطبة ١٩٢.

كيف نواجه التعصب

تنقسم الأمراض الخطيرة التي تصيب جسم الإنسان إلى نوعين: الأول منها يهدد بالقضاء على حياة المصاب، ويؤدي به إلى الموت، لكنه لا ينتقل بالعدوى إلى الآخرين، فضرره في حدود الشخص المبتلى به. بعكس النوع الثاني من الأمراض وهي ذات القابلية للسراية والانتشار، فإنها تعتبر الأكثر خطورة وتهديداً للصحة والحياة على المستوى البشري العام.

إن مرض الأورام الخبيثة (السرطان) مرض شديد الخطورة، لكنه ليس معدياً ولا ينتقل ضرره إلى الآخرين، لذلك تتجه جهود المعالجة نحو شخص المريض، أما مرض فقدان المناعة (الإيدز) مثلاً، أو الالتهاب الرئوي اللانمطي (سارز) فإنه بالإضافة إلى خطورته الذاتية على حياة المصاب، يشكل تهديداً خطيراً للصحة العامة، لقابليته للسراية والانتشار، لذلك يعلن المجتمع الدولي تعبئة شاملة لمواجهته وتقليص رقعة انتشاره.

ويمكننا تشبيه الأمراض الفكرية بهذين الصنفين من أمراض الجسم، فهناك أفكار خاطئة تقتصر آثارها السلبية على حياة المعتنقين لها، والمؤمنين بها، كأصحاب مختلف المعتقدات والأفكار المجانبة للصواب، فهم وحدهم يتحملون مسؤولية آرائهم وتوجهاتهم في آثارها الدنيوية، ونتائجها الأخروية، يقول تعالى: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن

(١) سورة سبأ: آية ٢٥.

شَيْءٍ﴾ [1]..

إنه ينبغي بذل الجهود لهداية كل حائد عن الصواب في آرائه ومعتقداته، لكنه إذا أصرّ وتمسك بفكرته فضرره على نفسه ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [2]..

لكن المشكلة تكمن في نوع آخر من الأفكار الخاطئة، التي تدفع أصحابها إلى الإضرار بالآخرين، وتنمي لديهم نوازع الحقد والكراهية على الغير، وتحفزهم نحو العدوان عليه.

ويعبّر عن هذا النوع من الأفكار بالاتجاهات التعصبية السلبية، حيث تنطوي على حالة من الكراهية والازدراء للآخر، تدفع للبطش به، والاعتداء على حقوقه المادية والمعنوية.

ويرى علماء النفس، أن حالة التعصب السلبي اتجاه له مكونات ثلاثة: معرفية وانفعالية وسلوكية، فالمكوّن المعرفي للاتجاه التعصبي عبارة عن الإدراكات والمعتقدات والتوقعات في ذهن المتعصب تجاه الطرف الآخر، وغالباً ما تأخذ هذه المعتقدات والإدراكات صورة القوالب النمطية، ويعرّف القالب النمطي بأنه: ((تصور يتّسم بالتصلب والتبسيط المفرط عن جماعة معينة، أو أنه يمثل تعميمات مفرطة عن خصائص مجموعة من الأشخاص ينتمون إلى فئة اجتماعية معينة، وقد تقوم هذه التعميمات المفرطة على أساس سلوك شخصي معيّن، أو مجموعة قليلة من الأشخاص، الذين ينتمون إلى هذه الفئة. وقد تنطوي هذه القوالب النمطية على بعض الفروق الحقيقية في الخصال، في صورة مشوهة، بالإضافة إلى أن بعض مظاهرها الأخرى يتم تلفيقها تماماً)). [3]

أما المكوّن الانفعالي، فيشتمل على المشاعر السلبية، مثل الازدراء والخوف والحسد والكراهية. ويعني المكوّن السلوكي الممارسات والمواقف العملية التي يسعى المتعصب لاتخاذها

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٢.

(٢) سورة المائدة: آية ١٠٥.

(٣) عبدالله: د. معتز السيد/ الاتجاهات التعصبية، ص٦٢.

ضد الآخرين. بدءاً من المقاطعة وتجنب التعاطي معهم، إلى التمييز الضار، حيث يأخذ المتعصب على عاتقه السعي لمنع المستهدفين من الحصول على التسهيلات والامتيازات التي يتمتع بها الآخرون، كفرص التعليم، والوظائف العالية، وقد تتطور الحالة إلى سلوك عنفي يتمثل في العدوان الجسماني والسطو على الممتلكات.

الاتجاهات التعصبية وخطورتها:

تارة يكون التعصب حالة فردية يبتلى بها بعض الأشخاص، لأسباب وعوامل خاصة، وأخرى يكون التعصب اتجاهاً وتياراً في المجتمع، له ثقافته ورموزه وكياناته، وذلك هو ما ينذر بأخطار وأضرار كبيرة، على مختلف الصُّعُد من حياة المجتمع.

فأولاً: تصبح فئة من أبناء المجتمع ضمن هذا الاتجاه التعصبي عناصر معقدة، تنمو في نفوسهم نوازع الحقد والشر، وتتجه طاقاتهم نحو الهدم والتخريب، وكلما اتسعت رقعة الاتجاهات التعصبية، خسر المجتمع المزيد من أبنائه، الذين يتحولون إلى عناصر سلبية هدّامة، بدل أن يبنوا حياتهم ويخدموا مجتمعهم.

ثانياً: مع نمو الاتجاهات التعصبية يفقد المجتمع وحدته واستقراره، حيث من الطبيعي أن يصبح لكل اتجاه تعصبي ضد فئة من المجتمع صدى وردّ فعل عند الفئة المستهدفة، يشكل حالة مضادة للدفاع عن الذات وحماية المصالح، فيتحول المجتمع إلى ساحة صراع، وميدان إحتراب، بين فئاته المتمايزة عرقياً أو دينيًّا أو سياسيًّا. وبذلك تنهار وحدة المجتمع، ويتقوض أمنه واستقراره.

ثالثاً: تشوه الاتجاهات التعصبية سمعة الجهة التي تنتمي إليها، من عرق أو دين أو مجتمع أو وطن، فتضطرب علاقاتها مع الجهات الأخرى، وقد يتورط المجتمع بكامله في صراع ونزاع مع مجتمعات أخرى، لوجود اتجاه تعصبي في أوساطه.

الدين هل ينتج تعصّباً؟

أن يتمسك الإنسان بدينه الذي اختاره بقناعة وإدراك، وأن يلتزم بتعاليمه وأحكامــه، فذلك أمر مرغوب ومطلوب، وإذا أُعتبر ذلك تعصّباً فهو من النوع الإيجابي، كمـــا يقـــول الإمام علي عليه السلام: ((فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور)).[1]

وما نلحظه من بعض الجهات الغربية والمتأثرين بها، من إطلاق صفة التعصـــب بـــالمعنى السلبي، على مظاهر الالتزام الديني عند المسلمين، كتطبيق الشـــريعة الإســـلامية، والأخـــذ بأحكام الدين كالحجاب واجتناب المحرمات، هذه النظرة تدخل ضمن إطار الحرب النفسية والإعلامية على الإسلام والمسلمين.

إن تمسك المجتمع بقيمه وأعرافه وتقاليده غير المسيئة للآخرين، ليس تعصّباً سلبيّاً، بل هو نوع من الأصالة، والحفاظ على الهوية، وممارسة حق التعبير عن الذات.

لكن ما تعاني منه جميع الأديان هو بروز توجهات تعصبية سلبية في أوساط معتنقيهـــا، ضد الآخرين، حيث تعتقد هذه التوجهات بأنها مكلفة من قبل الله تعالى بفرض ديانتها على الناس، وأنها مخولة بمعاقبة المخالفين لها، فهي تمتلك الحقيقة المطلقـــة، والآخـــرون في كفـــر وضلال، وعليهم الخضوع والاتباع، وإلاّ استحقوا الردع والتأديب.

وتمارس هذه التوجهات نزعاتها التعصبية ليس ضد أتباع الديانات الأخرى فقط، بل تمتد إلى داخل دائرة الدين نفسه، فهي لا تقبل بوجود الرأي الآخر، وتريد فرض فهمها للـــدين على جميع معتنقيه، دون أن تفسح المجال للمذاهب والاجتهادات الأخرى.

إنه يمكن القول بجزم، أن الدين في مفاهيمه وتعاليمه الواقعية، التي أوحى بها الله تعـــالى لأنبيائه، لا يمكن أن يسمح أو يجيز حالة من التعصب العدائي ضد أحد من أبناء البشر، إلا أن يكون معتدياً ظالماً.

(١) الشريف الرضي/ نهج البلاغة، خطبة ١٩٢.

فالبشر خلق الله وهو تعالى رحيم بعباده، وقد منحهم حريـــة الإرادة والاختيـــار، ولا يرضى أن يصادر أحد هذه الحرية من الناس، لذلك فحدود صلاحيات الرسل والأنبياء هي التذكير والتبليغ، ولا حق لهم في الفرض و الإكراه يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُـــذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [1]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِـــي الأَرْضِ كُلُّهُـــمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [2].

ومنح الله تعالى البشر حق الكرامة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [3]، فلا يمكن أن يسمح بالاعتداء على هذا الحق الممنوح من قبله تعالى.

إن المؤمنين بالله حقّاً يجب أن تفيض قلوبهم بالمحبة للناس، والرفق بهم، والاحترام لحقوقهم وكرامتهم، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: ((الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله)). [4]

وآيات القرآن الكريم كلها دعوة واضحة صريحة للدفاع عن حقوق الإنسان وكرامتـــه ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [5]،﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [6]..

ومنهج الأنبياء في الدعوة إلى الله قائم على أساس مخاطبة العقل والوجدان، واســـتخدام أفضل أساليب الجذب والاستقطاب، بالكلمة الطيبة، والأخلاق الحسنة، والتعامل اللائـــق: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [7].

فسلوك الحقد والازدراء، والإساءة للآخرين، تتناقض تماماً مع مفاهيم الدين وتعاليمـــه.

---

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢١– ٢٢.

(٢) سورة يونس: آية ٩٩.

(٣) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٤) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج٦ ص٣٨٤، حديث رقم ١٦١٧١.

(٥) سورة النساء: آية ٥٨.

(٦) سورة النحل: آية ٩٠.

(٧) سورة النحل: آية ١٢٥.

وإذا كان المنظرون لهذه الاتجاهات التعصبية يستدلون ببعض النصوص الدينية، لتبرير توجهاتهم وممارساتهم، فإن الإشكال في فهمهم وقراءتهم لهذه النصوص، وفي التعامل معها منفصلة عن منظومة القيم والمفاهيم الإسلامية.

وقد تكون لبعضهم أغراض ونوازع سيئة يستغلون النصوص ويوظفونها لتبريرها وتمريرها، لكن قيم الدين ومبادئه الأساس ترفض هذه التوجهات، فالله تعالى لا يقبل بالظلم والعدوان، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (1).

وما نلحظه من هذه الممارسات التعصبية، من قبل بعض الفئات المنتمية إلى الحالة الدينية الإسلامية، يشكل كارثة في تاريخ الإسلام والمسلمين المعاصر.

لقد غرّرت هذه التوجهات التعصبية بمجاميع من أبناء المسلمين، وخاصة الشباب، لتقذف بهم في أتون معارك خاسرة، داخلية وخارجية، انطلاقاً من تصورات قاتمة سوداء، ومشاعر سلبية بغيضة، تجاه مجتمعاتهم والعالم.

وأشعلت هذه التوجهات نار الفتنة الداخلية بين المسلمين، عبر إثارة النزاعات الطائفية المذهبية، وابتذال فتاوى التكفير واتهام الناس في أديانهم، ورميهم بالشرك والابتداع، لمجرد الاختلاف في الرأي والاجتهاد. ونتج عن ذلك ظهور جماعات عنف وإرهاب، تنتهك الحرمات، وتسفك الدماء، وتنشر الرعب والاضطراب في بلاد المسلمين.

كما وفرت هذه التوجهات التعصبية، أفضل الفرص لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين على مستوى العالم، وإرباك علاقات الدول والمجتمعات الإسلامية بسائر الأمم والقوى الدولية.

ومؤلم جدّاً أن يقترن اسم الإسلام بالإرهاب على الصعيد العالمي، وتتخذ مختلف دول

---

(1) سورة الأعراف: الآيتان ٢٨- ٢٩.

العالم إجراءات مشددة تجاه المؤسسات والأنشطة الإسلامية، وتجاه الرعايا المسلمين.

مواجهة التعصب:

لا يكاد يخلو زمن من أزمنة تاريخ الأمة من وجود اتجاهات تعصبية، منذ أن ظهرت فتنة الخوارج سنة ٣٧هـ، لكن وجود هذه الاتجاهات كان في الغالب محدود الانتشار والتأثير.

أما في هذا العصر فقد أصبحت تياراً واسع الانتشار، عظيم التأثير، بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، مما جعلها من أكبر التحديات في واقع الأمة.

لقد ساهمت عوامل مختلفة داخلية وخارجية في صنع هذه الظاهرة التعصبية، وفي تغذيتها وتنميتها، مما أتاح لها التجذر والتغلغل في كثير من البقاع والأوساط، ووفر لها مستوى هائلاً من القدرات والإمكانات.

ولا بد من تظافر الجهود الواعية، واستنفار القوى المخلصة، لمواجهة هذه الظاهرة الخطيرة، التي تهدد مستقبل الإسلام والأمة، بما تسببه من انقسام وتمزق داخلي، ومن تقويض للأمن الاجتماعي، وتعويق للتنمية، وتأجيج لصراع الحضارات بين الإسلام وسائر الأمم.

إن المواجهة القمعية لا تكفي وحدها للتغلب على هذه الظاهرة الخطيرة، بل قد تزيدها في بعض الأحيان تصلباً وشدة، والمطلوب اعتماد برامج وخطط شاملة لمعالجة جذور الاتجاهات التعصبية، وللحد من قدرتها على التأثير والانتشار.

ولعلماء النفس والاجتماع، دراسات وأبحاث قيمة، في مجال معالجات حالات التعصب، ومواجهة الاتجاهات التعصبية، كما أن في تجارب الأمم المعاصرة ما يمكن الاستفادة منه على هذا الصعيد.

فقد واجه الأمريكيون منذ النصف الأول للقرن العشرين، مشكلة الاتجاهات التعصبية العنصرية ضد الزنوج السود من الشعب الأمريكي، كما واجه الأوربيون اتجاهات النازية التعصبية.

وفي تعاليم ديننا وتراث حضارتنا كنوز من المعارف والتجارب التي تضيء لنا طريق الخلاص من هذه الفتن العمياء.

برامج التربية والتعليم

في مرحلة الطفولة وفي أحضان العائلة، ثم من خلال برامج التعليم، تتشكل الصورة الأساس لشخصية الإنسان.

وطبقاً لما لاحظه الباحثون في علم النفس والاجتماع، فإن الأطفال في سن الخامسة وما قبلها، لا يستوعبون حالات التمييز فيما بينهم على أساس أي انتماء عرقي أو ديني أو طبقي، بل ينجذبون إلى بعضهم، ويشتركون في اللعب، دون وجود مشاعر تمييزية.

لكنهم في سنّ السادسة وما بعدها يتأثرون بأجواء محيطهم العائلي، في تكوين الانطباعات والمشاعر للفرز بين أقرانهم وأندادهم من الأطفال، على أساس اختلاف الانتماءات.

وفي مرحلة الشباب من سنّ الثانية عشرة إلى السادس عشرة وما بعدها، يكون استعداد الأبناء أكثر للتعاطي مع حالات الفرز والتمييز، واتخاذ المواقف تجاه الآخرين. وتكون حالة الاندفاع والحماس، والعنفوان العاطفي في مرحلة الشباب، أرضية مساعدة للاستجابة للاتجاهات التعصبية. لذلك تهتم مختلف التيارات والتوجهات باستقطاب الشباب، للاستفادة من قوة حماسهم واندفاعهم في خدمة خططها وبرامجها.

وهنا يأتي دور التربية العائلية، والمناهج التعليمية، في توجيه مشاعر الأبناء، وترشيد توجهات الشباب، ليستقبلوا الحياة بروح منفتحة، ونفسية طيبة، غير ملوثة بالعقد والأحقاد.

ويظهر من دراسة حالات التعصب القائمة في مجتمعاتنا، أن التربية العائلية، وبعض المناهج التعليمية، تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية في زرع بذور هذه الاتجاهات التعصبية،

وتنميتها في نفوس الأبناء والطلاب.

إن الإمعان في تشويه صورة الآخر أمام الأبناء والطلاب، ووصفه وتعريفه بطريقة غير موضوعية، ثم التعبئة والتحريض ضده، بإثارة مشاعر الكراهية والعداء، الذي قد يصل إلى تجريده من كل قيمة وحق، كل ذلك يهيئ المتلقي (الابن/الطالب) للاستجابة للتوجهات التعصبية، والانخراط في صفوفها، والتفاعل مع ممارساتها العدائية.

و لم تسلم حتى مناهج الكليات والجامعات من هذا المطب الخطير، يقول باحث أكاديمي في مقال تحت عنوان (التنمية الأكاديمية لاتجاهات التعصبية)(1): ((يسعى القائمون على التعليم بداخل الكليات إلى تنمية الاتجاه الواحدي بما يتضمنه من قيم سلبية تتجسد في الأنا، وجعل الآخر شرطاً للنجاح بالقضاء عليه أو إبعاده أو إقصائه، فتسود في المجتمع الاتجاهات العصبية))، ويضيف هذا الباحث: ((يظهر من الكتاب التدريسي المقرر نصّاً الرغبة في تكوين القوالب النمطية للجماعات الأخرى المذهبية، ويلحظ في ذلك التكوين قيامه على صورة مشوشة أو مختزلة في شخصيات معينة، أو تلفيقها من جمع كثير قد لا يصدق على تلك الجماعة، أو ادراكات خاطئة)).

إن مكامن القوة في ديننا وعقيدتنا الإسلامية كبيرة وعظيمة، ولسنا بحاجة إلى الأساليب الملتوية لإقناع أبنائنا بصحة مبادئنا وأفضليتها، كما أن تعاليم الإسلام في التعاطي مع الآخرين، تنطلق من احترام إنسانيتهم، وإنصافهم، وإظهار الأخلاق الرفيعة لهم. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ (2)، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (3).

ومن الضرورة بمكان، إعادة النظر في أساليب التربية العائلية، ومناهج التعليم، لتنقيتها من

---

(1) الزهراني: محمد بن حسن/ التنمية الأكاديمية لاتجاهات التعصبية، مقال في جريدة الوطن السعودية، عدد ٤٧٣، تاريخ ١٥ يناير ٢٠٠٢م.

(2) سورة هود: آية ٨٥.

(3) سورة البقرة: آية ٨٣.

كل ما يخالف قيم التسامح، وأخلاق التعامل الإنساني، من أجل توفير تربية سليمة، وتعلـــيم صحيح، يؤهل أبنائنا للنجاح في تطوير قدراتهم، وخدمة أوطانهم، وتنمية مجتمعاتهم، وإعطاء صورة مشرقة عن دينهم أمام العالم.

العلاج المعرفي:

تنمو جذور التعصب في أرضية الجهل والانغلاق، حيث تتأسس القناعـــات، وتُتخـــذ المواقف، بناءً على تصورات خاطئة، وتقويمات نمطية، ونظرات ناقصة، وفي أجواء انفعاليـــة تعبوية.

ويحرص قادة الاتجاهات التعصبية على إبقاء أتباعهم في ظروف كهفية انطوائية، بعيـــداً عن وسائل المعرفة الحرة، وتأثيرات الرأي الآخر، ويصنعون حولهم سياجاً مـــن المحرمـــات والمحظورات، فالاطلاع على كتب الآخرين حرام لأنها كتب ضلال، ومخالطة المخـــالفين إثم باعتبارهم مبتدعة.

كما يجري ترويض عقولهم وأفكارهم، لمنعها من الحركة والنشاط خارج ســـياق مـــا يلقنونهم إياه، حيث لا يحق الاعتراض، ولا يصح النقاش، فذلك نوع من التمرد على الشرع، والتشكيك في النص المقدس.

وهكذا تصبح اجتهادات بعض أعلام السلف، وقيادات هذه التوجهات، سقفاً لا يمكن تجاوزه، ولا مجال للعقل في مناقشتها، أو التفكير في بدائل لها.

وبمقدار ما تتسع رقعة هذا الجهل والانغلاق، تتوفر أرضية نمو الاتجاهات التعصبية، وهنا يأتي دور المعرفة والثقافة، فانتشارها وتوفر مصادرها المتنوعة، يشكل وقاية وحصانة لأبنـــاء المجتمع من تأثير اتجاهات التعصب، ويساعد في إنجاح جهود المعالجة والخلاص.

إن فرض الحدود والقيود في بعض مجتمعاتنا على النشاط المعرفي والثقافي، حيث لا تتاح الفرصة في وسائل الإعلام، وحركة الإنتاج والنشر إلا لاتجاه آحادي، تعتبر عاملاً مســـاعداً

يصب في خدمة الموقف التعصبي.

وضمن سياق العلاج المعرفي لا بد من ضخ ثقافة إيجابية، تدعو إلى التسامح واحترام حقوق الإنسان، وتركز على المشترك الديني والوطني، لقد تجاهل الخطاب الديني المعاصر في معظمه، طرح كثير من القيم والمفاهيم والآداب الإسلامية، التي تنظم العلاقة مع الآخر، والتعامل معه على أساس إنساني قويم، يمثل الأصل في رؤية الدين للإنسان، واهتمامه بحفظ حقوقه وكرامته، وبالغ هذا الخطاب في التركيز على أحكام وضعها الإسلام للحالات الاستثنائية في التعامل مع الآخر.

فمثلاً: حين يكون الآخر معتدياً يجب جهاده ومواجهته، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١)، ويقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

أما في الحالة الطبيعية حينما لا يكون هناك عدوان فالعلاقة تأخذ مساراً إيجابيّاً قائماً على الإنصاف والإحسان يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٣).

فالبر والقسط هو الأصل في العلاقة والتعامل مع الآخر، أما المواجهة والعداء فهي رد فعل على عدوان الآخر إذا حصل.

ومثال آخر يرتبط بأسلوب الدعوة والإرشاد فالأصل فيه هو الرفق، واستخدام اللغة المؤدبة مع الآخرين، يقول تعالى لنبيه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*

(١) سورة البقرة: آية ١٩٠.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٣.
(٣) سورة الممتحنة: آية ٨.

فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

إننا في حاجة لبعث مفاهيم الإسلام حول أصول التعامل الإنساني، وضوابط العلاقات الاجتماعية بين بني البشر، ولنشر ثقافة حقوق الإنسان، وآداب التخاطب مع الناس.

مسؤولية القانون:

أولى مهام السلطة القانونية في أي بلد وضع التشريعات والقوانين لحماية حقوق الناس، ورعاية مصالحهم، وحماية الأمن الاجتماعي، وذلك لا يتحقق إلا بمنع وتجريم حالات الإساءة والاعتداء. والتحريض عليها أو الدفع باتجاهها.

إن فسح المجال للاتجاهات التعصبية، لكي تنشر أفكارها السلبية، وتوزع اتهاماتها الخاطئة، التي تثير نوازع الكراهية، وتكرس الانقسام والأحقاد بين الناس، لن يؤدي إلا إلى استحكام هذه الاتجاهات، ونموها في مختلف الأوساط. مما يهدد أمن الوطن واستقرار المجتمع.

ويمكننا أن نستنتج من الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في التحذير من الإساءة لغير المسلمين من أهل الذمة، اهتمام الإسلام بالحد من أي توجه تعصبي سلبي. فقد جاء في سنن أبي داود أنه ﷺ قال: ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)).[3]

هكذا يعتبر نبي الإسلام أن الإساءة إلى مواطن غير مسلم، ولو بانتقاصه أي التقليل من شأنه، خصومة مع رسول الله ﷺ تستوجب المحاسبة يوم القيامة.

وحدث مرة في مجلس حفيد رسول الله ﷺ الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن رجلاً

---

(١) سورة الممتحنة: آية ٨.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٣) السجستاني: الحافظ أبو داود/ سنن أبي داود، حديث رقم ٣٠٥٢.

سبَّ مجوسيّاً، فزجره الإمام جعفر ونهاه، فقال الرجل: إنه مجوسي نكح أخته! فأجابه الإمام: ((ذاك عندهم نكاح في دينهم)).[1]

إن قوانين الدول الغربية، ومواثيق حقوق الإنسان، تمنع وتجرّم أي دعوات تحريضية على الكراهية، أو تشجيع على ممارسة الإرهاب والعنف ضد الآخرين، أو أي تصرف تمييزي.

ومجتمعاتنا الإسلامية أولى بمثل هذه التشريعات لوضع حدٍّ للخطابات التعبوية التحريضية المثيرة للفتن والانقسام، والمهددة لأمن المجتمع واستقراره، ولمنع أي ممارسات تمييزية بين المواطنين.

---

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ وسائل الشيعة، ج٢٦ ص٣١٩، حديث رقم ٣٣٠٧٦.

منطلقات التجديد

يمتاز تاريخ حياة الإنسان بأنه حافل بالتطورات والتغيرات، بينما سائر الكائنات الحيّة، تتسم حياتها بنسق واحد، وطريقة واحدة، طوال التاريخ، إن بعض الحيوانات قد تقوم بمهام، وتؤدي أدواراً تبهر الإنسان بروعتها وإتقانها، لكنها تقوم بذلك ضمن وضع رتيب، وكيفية ثابتة، لا يطرأ عليها أي تجديد أو تغيير.

فالنحلة مثلاً، هذه الحشرة الجميلة النافعة، التي تنتج لنا العسل، وتنتج شمع العسل، الذي نستخدمه في منتجات عديدة، كالصمغ والشموع ومستحضرات التجميل، كما تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى، فتساعد النباتات على التكاثر.

هذه النحلة تعيش ضمن مستعمرة نموذجية، في قفائر أو خلايا نحل، على شكل صندوق يحتوي على قرص العسل، وهو كتلة من الحجيرات السداسية الشكل، تبنيه شغالات النحل، من الشمع الذي تنتجه أجسامها، وتحتوي كل ١٠ سم على نحو ٦٠ خلية سداسية وتضم بعض المستعمرات ما بين ٥٠ ألف و٦٠ ألف نحلة. من بينها ملكة واحدة، مهمتها الوحيدة، وضع البيض بمعدل ٢٠٠٠ بيضة في اليوم في الربيع، أي بيضة واحدة كل نحو ٤٣ ثانية، وتضم المستعمرة بضع مئات من الذكور من نسل الملكة، لا عمل لها إلا إخصاب الملكة فقط، لكن ليس الملكة التي أنجبتها، لأنها تتزاوج في العادة من ذكور مستعمرة أخرى. وهناك آلاف من النحل الشغالات، تقوم بأعمال تنظيف الخلية، وتغذية نحل العسل وتنميته وإنتاج الشمع، وبناء خلايا قرص العسل، وحراسة مدخل الخلية، وتسلم الرحيق المجموع عن طريق النحل.

وتستطيع النحلة الشغالة أن تطير بسرعة ٢٥ كم في الساعة، وتجمع في حياتها رحيقاً يكفي لصناعة ٤٥ جم من العسل.

هذا الترتيب الرائع والتنظيم المتقن لحياة النحل، هو وضع ثابت مضى عليه الآن منذ وجود النحل ما يقارب ٨٠ مليون سنة حسب تقدير العلماء، لم يلامسه تغيير أو تطوير[(١)].

التطور ميزة الإنسان:

الإنسان وحده يملك العقل، وبه يتمكن من التطوير والتجديد في حياته، أما سائر الحيوانات والكائنات، فتسيّرها غرائزها وطبيعتها التي خلقها اللّه تعالى عليها، ولا قدرة لها على التفكير والتغيير، لذا تبقى طريقتها في الحياة ثابتة رتيبة، بينما تستمر التطورات والتحولات في حياة الإنسان.

وكلما اتجه الإنسان لعقله، واستخدم فكره، وارتقى بعلمه ومعرفته، زادت وتيرة التجديد والتغيير في حياته. وبذلك يرتفع إلى مستوى تميزه كإنسان.. وإذا ما تجاهل قدراته العقلية، وجمّد تفكيره، ولم يُنمِّ علومه ومعارفه، عاش حياة الركود والجمود، ليقترب من حضيض عالم الحيوانات الرتيب.

والدارسون لتاريخ التحولات في حياة البشر، يلحظون مدى علاقتها بالمستوى الفكري والعلمي للإنسان، لذا فإن جيلنا الحالي يبدو كأنه قد ولد في منتصف التاريخ، لأن ما حدث لجيلنا منذ ولادته حتى الآن، يعادل تقريباً كل ما حصل في التاريخ البشري منذ آدم عليه السلام حتى اللحظة الراهنة.

وكمثال على ذلك: في سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد، كانت أسرع وسيلة نقل للمدى البعيد، متوفرة لدى الإنسان هي الجمال، بمتوسط ٨ أميال في الساعة، وظل هذا المستوى إلى

(١) راجع الموسوعة العربية العالمية ج٢٥ ص٢٦٨– ٢٧٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩م – الرياض.

حوالي١٦٠٠ سنة قبل الميلاد، حين اخترعت العربة ذات العجلات، وارتفع معدل السـرعة إلى حوالي ٢٠ ميلاً في الساعة، وبقي هذا المستوى آلاف السنين، وفي الثمانينيات من القرن الماضي، وبفضل القاطرات البخارية المتطورة، استطاع الإنسان أن يصل إلى سرعة ١٠٠ ميلٍ في الساعة. لكنه بعد ٥٨ عاماً على استخدام القاطرات البخارية، استطاع في سنة ١٩٣٨م أن يطير بسرعة ٤٠٠ ميلٍ في الساعة، أربعة أضعاف المستوى السابق، وبعد عشرين عامـاً، في الستينيات من هذا القرن وصلت سرعة الطائرات الصاروخية إلى ٤٠٠٠ ميلٍ في الساعة، واستطاع الإنسان أن يدور حول الأرض في كبسولات الفضاء التي تسير بسـرعة ١٨٠٠٠ ميل في الساعة[1]. إذاً، فالتطور والتجديد علامة على ارتقاء الإنسان في مستوى تميزه عـن سائر الكائنات، ومؤشر على استثماره لنعمة العقل التي حباه اللّه تعالى بها.

الكون في تجدّد مستمر:

هذا الكون الذي نعيش فيه، هو في حالة صيرورة دائمة، وتجدّد مستمر، فهناك نجـوم جديدة تنشأ في الفضاء باستمرار، ويقرر الفلكيون أنهم لا يعرفون مدى اتساع الكون، فربما يمتد إلى ما لا نهاية، واكتشف الفلكيون أن معظم المجرات يتحرك بعضها بعيداً عـن بعـض بسرعة فائقة، وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن المجرات الأكثر بعداً عن الأرض هـي الأسـرع تحركاً، ولهذا فإن معظم العلماء يعتقدون أن الكون يتسع باطراد، ففضاء العالم المتشكل من مليارات المجرات في حالة انبساط سريعة، والبحوث الفضائية أشارت إلى وجود أدلة على أن هناك حالة تكون لمجرات جديدة في أعماق الفضاء..

وتلك حقيقة يقررها القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2]. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

---

(١) قافلة الزيت ص١٦ عدد محرم١٤١٦هـ.

(٢) سورة الذاريات: آية ٤٧.

(1). فحالة الصيرورة في الكون مستمرة بيد اللّه تعالى، وفي كل يوم، والمقصود باليوم هنا الوقت، أي كل وقت ولحظة، وليس الوقت الخاص من الفجر إلى آخر الليل. ففي كل لحظة هناك شأن عظيم وحدث مهم يحصل في الكون.

قال الآلوسي: فإنه تعالى لا يزال ينشئ أشخاصاً، ويفني آخرين، ويأتي بأحوال، ويذهب بأحوال، حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة، وأخرج البخاري في تاريخه، وابن ماجه، وابن حبان، وجماعة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ((من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين)) [2].

وجاء في خطبة للإمام علي عليه السلام: الحمد للّه الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه، لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن[3].

وأجسامنا كجزء من هذا الكون تعيش حالة من التغيير والتجديد الدائم، فالمواد الزلالية التي توجد في خلايا دمائنا تتلف ثم تتجدد، ومثلها جميع خلايا الجسم تموت وتحل محلها خلايا جديدة، وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كليّاً خلال ما يقرب من أربع سنين، وتتغير جميع ذرات الجسم في بضع سنين، فالجسم كنهر جارٍ. ففي كل دقيقة تموت في جسم الإنسان نحو ثلاثة بلايين خلية، وفي نفس الدقيقة يتولد عدد جديد مماثل من الخلايا، بالانقسام الخلوي، عوضاً عن الخلايا الميتة، وخلايا الجلد الميتة تتقشر، بينما تمر الخلايا الميتة من خلايا الأعضاء الداخلية إلى خارج الجسم مع الفضلات، ويتفاوت المدى الزمني للخلايا، فخلايا الدم البيضاء مثلاً تعيش لمدة ١٣ يوماً، بينما تعيش خلايا الدم الحمراء لمدة ١٢٠ يوماً، وخلايا الكبد حوالي ١٨ شهراً، أما الخلايا العصبية فتعيش حوالي ١٠٠

---

(١) سورة الرحمن: آية٢٩.

(٢) الآلوسي البغدادي: السيد محمود/ روح المعاني في تفسير القرآن ج٢٧ ص١١٠، الطبعة الرابعة١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(٣) الحويزي: الشيخ عبد العلي/ تفسير نور الثقلين ج٥ ص١٩٣ الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ مؤسسة إسماعيليان- قم.

سنة[١].

إذاً، فهناك حركة تجدد داخل جوهر الأشياء، وكان الفلاسفة يعتقدون أن الحركة غير ممكنة في جوهر ذات الجسم أبداً، لأنه في كل حركة يجب أن تكون ذات الجسم المتحـــرك ثابتة، إلا أن عوارضه قد تتغير، وإلا فإن الحركة لن يكون لها مفهـــوم. لكـــن الفلاســـفة المتأخرين قد رفضوا هذه النظرية، واعتقدوا بالحركة الجوهرية، وقالوا: إن أساس الحركة هي الذات (الجوهر) التي تظهر آثارها في العوارض، وأول من بيّن هذه النظرية بشكل تفصـــيلي استدلالي هو المولى صدر الدين الشيرازي حيث قال: إن كل ذرّات الكائنات وعالم المـــادة متحركة، أو بتعبير آخر، إن مادة الأجسام وجودية، كالماء الجاري الذي تكون ذاته متغيرة، وفي كل لحظة يصبح له وجود جديد، يختلف عن الوجود السابق له، ولكون هذه التغيرات متصلة مع بعضها فإنها تحسب شيئاً واحداً[٢].

أهداف التأمل والنظر في الكون:

وحينما يأمرنا اللّه تعالى بالتأمل والنظر في الكون، ويلفتنا إلى حالة التجـــدد والإبـــداع الدائم في الخلق، فذلك للأهداف التالية:

أولاً: إدراك عظمة الخالق القدير سبحانه.

ثانياً: الوعي بطبيعة السنن الحاكمة في الوجود فلا يصيبنا اليأس والقنوط.

ثالثاً: فهم دور التغيير والتجديد في حركة الحياة.

فنستوحي من ذلك الدرس والعبرة في تعاملنا مع أوضاعنا الاجتماعية، وسلوكنا الحياتي.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج١٠ ص١٤٧ الطبعة الثانية ١٩٩٩م الرياض.

(٢) الشيرازي:الشيخ ناصر مكارم/ الأمثل ج١٧ ص٣٤٧.

سباق التطور:

الحياة ميدان سباق يتفوق فيه رواد التطوير والتجديد، فالمجتمع الأكثر تجديداً، والأسرع تطوراً، يحرز التقدم ويفرض نفوذه وهيمنته، بينما المجتمع الراكد البطيء الحركة تتأسن أوضاعه، ويصيبه الهرم، ويصبح متخلفاً، يخضع لهيمنة المتقدمين.

وخاصة في هذا العصر، حيث انعدمت المسافات، وسقطت الحدود والحواجز، ولم يعد هناك مجال للتوقف والجمود، فإما أن تكون منتجاً لحركة التطوير والتجديد، أو متهيئاً لاستقبالها واستيعابها بدرجة ثانية، حتى لا تصطدم مع ثوابتك ومبادئك، وإلا فستعصف بك حركتها الجارفة، دون خيار منك، لتصبح تابعاً مستهلكاً لما ينتجه الآخرون، من سلع وأفكار وبرامج وسلوك.

مواجهة التحديات:

في مسيرة الحياة تواجه المجتمع مشاكل وتحدّيات، قد تتطلب مواجهتها نوعاً من التجديد في الأفكار، والتطوير في البرامج، والتحديث في الوسائل والأساليب، فإذا تلكأ المجتمع في حركة التغيير، وتشبث بما تعود عليه وألفه، فستهزمه التحديات، وتعرقل مسيرته المشاكل والأزمات.

ونلحظ كيف أن تحديات الطبيعة، ومشاكل الحياة، هي التي دفعت الإنسان للاكتشاف والاختراع، فابتدع الأساليب والوسائل في مختلف المجالات، وبذلك تجاوز تلك التحديات والمشاكل إلى حدٍّ كبير، وكذلك الحال على المستوى الاجتماعي، لا بد من إبداع وتطوير، يمكن المجتمع من مقاومة سلبيات الواقع، والتغلب على إفرازات الظروف والأوضاع.

الإسلام: دعوة للتجديد:

واجهت رسالات السماء حالة الجمود في مجتمعاتها، والتشبث بما ورثوه من أسلافهم،

وألفوه في حياتهم، ودعت المجتمعات إلى التحرر من أسر الماضي وأغلال الحاضر، والأخـــذ بالحق والصواب.

لكن منطق الرجعيين أمام أنبيائهم كان: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَـــارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (1).

فما سار عليه الآباء، وما اعتاد عليه المجتمع، يجب أن يبقى ويستمر، وأي طرح جديد، يواجه بتحفظ ورفض، تحت شعار: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (2).

والإسلام كرسالة خاتمة للرسالات السماوية، يدعو البشرية للانفكاك من القيود الـــتي تعيق وتمنع حركتها نحو الحق والتقدم، يقول تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَيَضَـــعُ عَـــنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (3).

ويهيب بالإنسان أن ينفتح على الآراء والأفكار المختلفة، ليكتشف الأفضل منها ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (4).

ويذمّ عقلية الركود وحالة الجمود، لأنها تنتهي بالإنسان إلى التخلف عن ركب الحياة، وتجعله في عداد الأموات، ورد في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كان في غده شرّاً من يومه فهو مفتون، ومن لم يتفقّد النقصان في نفسه دام نقصه، ومن دام نقصه فالموت خير له)) (5).

وبالمضمون نفسه هناك رواية عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام (6) وأخرى عن الإمـــام

---

(1) سورة الزخرف: آية22.
(2) سورة المؤمنون: آية24.
(3) سورة الأعراف: آية157.
(4) سورة الزمر: آية18.
(5) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج75 ص277.
(6) المصدر السابق: ص327.

علي عليه السلام[1].

تلك هي أهم المنطلقات التي تنبثق منها حركة التطوير والتجديد في حياة الإنسان المسلم، وللتجديد مناهجه وضوابطه، ومجالاته وآلياته، ليكون في مصلحة الإنسان ومنسجماً مع المبادئ والقيم.

(١) المصدر السابق: ج٧٤ ص٣٧٧.

روح التجديد

لماذا ترتفع وتيرة التجديد والتطوير وتمشي سريعة في بعض المجتمعات، بينما تكون منخفضة بطيئة أو شبه معدومة في مجتمعات أخرى؟

قد يقول البعض: إن السبب في ذلك توفر الإمكانات هنا، وافتقادها أو قلتها هناك، فالمجتمع الذي يمتلك الإمكانات والثروات، يمكن أن تنطلق فيه مسيرة التطوير، أما المجتمعات الفقيرة فقدرها أن تعيش راكدة جامدة.

وقد يرى آخرون أن للمسألة علاقة بجذور المجتمع وتاريخه، فإذا كان ينتمي لماضٍ حضاري، وتاريخ عريق، فإن ذلك سيدفعه للتغيير والتقدم، أما إذا كان مجتمعاً حديث التكوّن، أو كان ماضيه خاملاً، فإنه سيشكل امتداداً لتاريخه السابق.

وقد يذهب طرف ثالث إلى تأثير واقع المجتمع على إمكانية حركته، من حيث حرية المجتمع واستقلاله، أو وقوعه تحت هيمنة معادية، أو قوة مناوئة، تشل إرادته وتمنع تقدمه.

هذه الآراء وأمثالها وإن كانت تتضمن شيئاً من الحقيقة، وتعكس جانباً من الصورة، لكنها لا تكشف لنا سرّ المفارقة وجوهر الإشكال، فتاريخ الحضارات والأمم المعاصرة، يحدثنا عن مجتمعات قليلة الثراء، حققت معاجز التقدم كاليابانيين. ومجتمعات ناشئة أصبحت في القمة كالأمريكيين، ومجتمعات محاصرة مهزومة، تجاوزت واقعها، وبنت قوتها من جديد، كألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية.

بينما نجد أمماً أخرى تمتلك الثراء والعمق التاريخي، والظروف الخارجية المناسبة، إلا أنها تعيش حضيض التخلف والجمود.

يذكر (باول كندي) في كتابه (التحضير للقرن الواحد والعشرين): أن كوريا وغانا كانا يعيشان مستوىً اقتصاديّاً متقارباً عام ١٩٦٠م، وكان دخل الفرد في البلدين بحدود ٢٣٠ دولاراً في السنة، وبعد ثلاثين عاماً (سنة ١٩٩٠م) تضاعف دخل الفرد في كوريا إلى اثنى عشر ضعفاً، ليصبح ٢٧٦٠ دولاراً، بينما بقي دخل الفرد الغاني على حاله ٢٣٠ دولاراً !!

كما أن اليابان ومصر بدآ نهضتهما الحديثة في سنة واحدة، وكانت اليابان تعيش ظروفاً صعبة قاسية، في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، وإصابتها بالقنابل الذرية، ولكن كم هو الفارق الآن بين تقدم اليابان ومصر؟

فالنهضة والتجديد روحٌ وحالةٌ داخلية، قبل أن تكون ظروفاً وإمكانات خارجية، فإذا ما سرت هذه الروح في جسد أمة، بعثت فيه الحركة والنشاط، وانطلق يبحث عن الإمكانات، ويصنع التاريخ، ويواجه التحديات. وإذا افتقدت أمة هذه الروح، تحولت حياتها إلى موت، وإمكاناتها إلى فقر وحرمان، وتكالب عليها الأعداء من كل جهة وجانب.

لذلك يركز القرآن الكريم على أهمية تغيير النفس، ويعتبره الشرط الوحيد لتغيير الواقع الخارجي، فالانطلاق يبدأ من داخل نفس الإنسان والأمة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [1].

ومهما امتلك المجتمع من كفاءات وقدرات، وتوفر له من إمكانات وثروات، فإنه بدون روح النهضة والتجديد لا يحقق لنفسه شيئاً، بل يبدد إمكاناته هدراً، وتذهب ثرواته هباءً، ويعيش جموداً يقترب به من حياة البهائم، كما يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ

(١) سورة الرعد: آية١١.

﴿هُمْ الْغَافِلُونَ﴾[1].

إنهم غافلون عما منحهم اللَّه تعالى من نعم، وأهمها نعمة العقل والتفكير ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وحتى جوارحهم وحواسهم لا يستفيدون منها الاستفادة المطلوبة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فلن تتطور حياتهم إذاً، بل تكون كحياة الأنعام راكدة جامدة، بانصرافهم عن هدي اللَّه تعالى، ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾، وإذا كانت الأنعام معذورة لأنها غريزة بلا عقل، فما عذر الإنسان؟ إذاً ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأسوء حالاً من البهائم.

وفي آية أخرى يؤكد الباري عز وجل أهمية داخل الإنسان، وما تنطوي عليه أعماق نفسه، بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[2] فإذا كانت النفوس لا تنطوي على خير، ولا تحمل رغبة ولا إرادة للتطور والتغيير، فلن تنفعها أية محاولة أو فرصة خارجية.

سمات وصفات الإبداع:

إن روح التجديد والتطور، تعني امتلاك صفات وسمات، تملأ حياة الإنسان بالحيوية والنشاط، وتدفعه للإبداع والإنجاز، وتجعله يتخطى العقبات والحواجز، وسنبحث أهم تلك السمات.

التطلع والطموح:

الواقع الذي يعيشه الإنسان إذا كان سيئاً متخلفاً، فإنه لا يشكل حتمية ثابتة، ولا قدراً مفروضاً، بل هو نتاج أسباب وعوامل قابلة للتغير والتبدل، وفي طليعتها كسب الإنسان

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٣.

نفسه، فهو يتحمل بالدرجة الأساس مسؤولية الواقع الذي يعيشه. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (١).

وبذلك فالفرصة متاحة للإنسان لكي يتخلص من ذلك الواقع السيئ، حينما يرفض الاستسلام له ويتطلع لتجاوزه، والتاريخ حافل بالتغيرات الاجتماعية، فكم من مجتمع مستضعف أصبح قويّاً، وكم من حضارة سادت ثم بادت، وإرادة اللّه تعالى مع كل مجتمع يسعى للنهوض ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ (٢).

وإذا كان الواقع المعيش حسناً جيداً، فإن على الإنسان أن لا يعتبر واقعه نهاية وسقفاً، ولا يستولي عليه الغرور والإعجاب، فيتوقف عن التقدم، وإذا لم يتقدم فإنه يتخلف، يقول الإمام علي عليه السلام: ((من جهل اغتر بنفسه وكان يومه شرّاً من أمسه))، ((من اغتر بحاله قصر عن احتياله))، ((الإعجاب يمنع الازدياد)) (٣).

إن التطلع إلى الأفضل، والطموح إلى الأحسن، هو الشرارة الأولى التي تنقدح بها حركة التجديد والتغيير، بينما الخمول والرضا بالواقع والاستسلام له، أو الغرور والإعجاب بما تحقق، يجعل الإنسان يراوح في مكانه، ولا يحافظ عليه بل يتراجع عنه.

إن المؤسسات الناجحة هي التي تقوِّم أداءها بشكل منتظم، وتخطط لرفع المستوى، وزيادة الفاعلية والإنتاج.

وتعاليم الإسلام توجهنا إلى التطلع والطموح الدائم، في مختلف المجالات، ففي دعاء مكارم الأخلاق، للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام تذكير للإنسان بالتفكير في

---

(١) سورة الشورى: آية ٣٠.

(٢) سورة القصص: آية ٥.

(٣) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

التقدم، على صعيد الإيمان والمعرفة والعمل، ويأتي هذا التوجيه على شكل دعــاء وطلــب، يلتمسه الإنسان من ربه، ليتجذّر في أعماق نفسه، ويتحول إلى برنامج في حياتــه، يقــول الدعاء: ((وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانتــهِ بنــيتي إلى أحســن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال)). وفقرات الدعاء تعني أن أي مستوى من الإيمــان أو اليقين أو النية الحسنة والعمل الصالح، لا يشكل نهاية ولا حدّاً أخيراً، وإنما يبقى أفق الكمال والتقدم مفتوحاً أمام الإنسان، لتحقيق الأحسن والأكمل والأفضل.

الثقة بالنفس:

حينما يرى الإنسان إنجازات الآخرين وإبداعاتهم، فيجب أن يدفعه ذلك للثقة بنفســه، والتوجه إلى تفجير قدراته وطاقاته، فهو إنسان مثلهم، يمتلك ما يمتلكون من عقــل وإرادة، وكما استخدموا عقولهم، ومارسوا إرادتهم، فأبدعوا وأنجزوا، فعليه أن يفعل مثل ذلك لكي يبدع وينتج. هذا هو المنهج الصحيح. لكن بعض الناس على العكس من ذلــك ينبــهرون بإنجازات غيرهم، إلى حدّ فقد الثقة بأنفسهم، وتجميد عقولهم وطاقاتهم، بحيــث لا يــرون أنفسهم قادرين على المجاراة والمماثلة، فضلاً عن التفوق والتقدم. وبهذا تتوقــف الحركــة، ويتعذر التطوير والتجديد.

وتارة يكون الانبهار بالسلف، كجيل سابق، أو شخصيات تاريخية، تُضفي عليها هالــة من التقديس والتعظيم، فتكون سقفاً لفكر من بعدها، وحدّاً في الإنجــاز لا يمكــن تخطيــه وتجاوزه. فيتم الوقوف عند مستوى فهم السلف، وطريقة حياتهم، أو تعظيم شخصية كان لها شأن، ودور تاريخي مميز، لا يجرأ أحد على نقدها، أو مخالفة آرائها ونظرياتها.

إن غير المعصوم مهما كانت كفاءته وقدرته، فهو بشر محدود بزمانه وظرفه، واجتهاده لا يمنع من بعده من الاجتهاد، ورأيه يحتمل فيه الخطأ والصواب.

إن أسلاف الأمة الصالحين ينبغي تقديرهم، والاستفادة من آرائهم وتجاربهم، لكــن لا

ينبغي الوقوف عند حدود فهمهم، فقد حبانا اللّه تعالى عقولاً كما حباهم، وخاطبنا بوحيه كما خاطبهم، ولعل بعض آرائهم أو أساليب تعاملهم، كانت من وحي ظروفهم، كما أن تطور الحياة وتراكم التجارب، قد تفتح لنا آفاقاً أو تكشف لنا أموراً، لم تكن متاحة لهم.

والشخصيات القيادية في مجالات العلم أو العمل، مهما كان مستوى علمها، أو حجم عملها، فإن أحداً منها لا يشكل نهاية للعلم، ولا سقفاً للعمل، و ((كم ترك الأول للآخر)) كما يقول شاعر عربي، ويقول شاعر آخر:

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وأصدق من ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [1].

وكمثال على دور تقديس الشخصيات، والانبهار بها إلى حدّ التوقف والجمود، نشير إلى ما ذكره العلماء في ترجمة الشيخ الطوسي محمد بن الحسن ﷺ (٣٨٤هـ -٤٦٠هـ) إنه لعظم مكانته العلمية، في نفوس تلامذته ومن بعدهم فقد ((مضت على الشيعة سنون متطاولة وأجيال متعاقبة، و لم يكن من الهيّن على أحد منهم، أن يعدو نظريات شيخ الطائفة – الطوسي – في الفتاوى، وكانوا يعدّون أحاديثه أصلاً مسلّماً، ويكتفون بها، ويعدّون التأليف في قبالها، وإصدار الفتاوى مع وجودها، تجاسراً على الشيخ وإهانة له، واستمرت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ ابن إدريس -محمد بن أحمد بن إدريس الحلي توفي ٥٩٨هـ- فكان يسميهم بالمقلِّدة، وهو أول من خالف بعض آراء الشيخ وفتاواه، وفتح باب الرد على نظرياته)) [2].

ولولا شجاعة الشيخ ابن إدريس، وتحلّيه بالثقة بالنفس، ورفضه لحالة الانبهار والاستلاب أمام شخصية الشيخ الطوسي، لأوشك أن يغلق باب الاجتهاد في الوسط الديني

(١) سورة يوسف: آية ٧٦.

(٢) الأمين: السيد محسن/ أعيان الشيعة ج٩ ص١٦٠ دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٦م- بيروت.

العلمي.

انطلاق العقل:

هناك علاقة وثيقة بين حركة التطوير وحرية التفكير، فإذا قمع الناس عقولهم رهبة أو رغبة، وسادهم أجواء الكبت والإرهاب الفكري، بحيث يحجر الإنسان على عقله الانطلاق خارج المألوف، أو أن المجتمع يرفض الآراء المتطورة الجديدة، ولا يعطيها فرصة الطرح والمناقشة والتجربة، فحينئذٍ تتعطل مسيرة التجديد ولا يحصل تطور أو تغيير.

إن حرية الفكر والرأي حق أساس من أهم حقوق الإنسان، بها يشعر الإنسان بإنسانيته، ويستثمر أعظم نعمة وهبها اللّه تعالى له، وهي نعمة العقل، وعبرها يتمكن من تسخير الكون، وإعمار الحياة، حيث أراد اللّه تعالى منه ذلك.

وقد اهتم الإسلام بحماية هذه الحرية وضمانها، وترشيد أدائها، حتى لا تقع تحت تأثير الأهواء والشهوات، فآيات كثيرة في القرآن الكريم، تدعو الإنسان بإلحاح لاستخدام عقله، وتفعيل تفكيره، في مختلف الجوانب والمجالات، ففي سياق الحديث عن الكون والحياة وفي قضايا المجتمع والدين، يتكرر قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [(١)] و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [(٢)] و ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [(٣)].

وإذا كان الدين يأمر بالتفكير وإعمال العقل، فلا يمكن أبداً أن يرضى بمصادرة حرية الرأي، أو إرهاب الفكر، نعم هناك ضوابط لحماية هذه الحرية من عبث العابثين وإفساد المغرضين.

---

(١) سورة يوسف: آية ١٠٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٧٣.

(٣) سورة الأنعام: آية ٥٠.

الشجاعة والجرأة:

قد يكتشف الإنسان خطأ فكرة من أفكاره، أو نقطة ضعف في بعض سلوكه وممارساته، وقد يتعرف منهجاً أفضل، وأسلوباً أحسن، لشأن من شؤون حياته، لكن تخونه الشجاعة والجرأة، وتأسره العادة التي ألفها، أو تأخذه العزة بالإثم – على حدّ تعبير القرآن الكريم – وهنا يفوّت على نفسه فرصة التطوير والتجديد، واختيار الأصح والأفضل.

صحيح أن للعادات ضغطها ونفوذها في حياة الإنسان، كما يقول الإمام علي عليه السلام: ((للعادة على كل إنسان سلطان)) و ((أصعب السياسات نقل العادات)) [١].

لكن قوة الإرادة تستطيع أن تواجه سلطان العادة، والإنسان الواعي هو الذي ينتزع قراره من ضغوط العادات ونفوذها، يقول الإمام علي عليه السلام: ((غالبوا أنفسكم على ترك العادات وجاهدوا أهواءكم تملكوها)) ، ((ذللوا أنفسكم بترك العادات وقودوها إلى أفضل الطاعات)) [٢].

وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن بعض المجتمعات تتحلى بمرونة كافية، وتمتلك شجاعة وجرأة، لتغيير بعض عاداتها وأعرافها، حينما يتضح لها ما هو أفضل منها، لكن مجتمعات أخرى تتشبث بما ألفت وتعودت، وإن كان ذلك على حساب مبادئها ومصالحها.

وكمثال على ذلك، بعض العادات المتداولة في مناسبات الزواج والعزاء، التي تستلزم الكثير من التكاليف والنفقات، وتسبب إرهاقاً وعناءً، ورغم أن أكثر الناس يرونها عبئاً ثقيلاً يتمنون الخلاص منه، وهناك قناعة نظرية بذلك، لكن الشجاعة والجرأة لا تتوفر بالمقدار المطلوب لتغيير هذه العادات، وأن يستبدلوا بها الأفضل والأسهل.

وأيضاً فقد تعودت بعض مجتمعاتنا الخليجية نمطاً معيّناً من الحياة الاستهلاكية، أيام

---

(١) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر السابق.

الطفرة الاقتصادية - كما يقولون -، ومع أن الأوضاع الاقتصادية قد اختلفت، وأصبحت ضاغطة على حياة الأغلبية من الناس، إلا أن عادات الفترة السابقة لا زالت تراوح مكانها، لصعوبة تغييرها وتجاوزها بشكل عام.

هذه السمات الأربع: التطلع والطموح، والثقة بالنفس، وانطلاق العقل، والشجاعة والجرأة، هي تجلّيات روح التجديد، التي إذا سرت في حياة المجتمع، قادته إلى التغيير والتطوير، وإذا فقدت لن تنفع الشعارات والتمنيات، ولا تجدي الطروحات والنظريات.

تقدير الكفاءة والإبداع

لا تقاس الشعوب والمجتمعات بوفرة عددها وبكثافتها السكانية، فقد تكون الكثرة الكمية عبئاً يستنزف الموارد، ويعوق الحركة، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه عنه مولاه ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم، من كل أُفُق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذٍ؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل))[1].

وإنما تقاس المجتمعات بقوتها النوعية، المتمثلة في كفاءات أبنائها، وقدراتهم المتميزة علميّاً وعمليّاً. من هنا اعتبر القرآن الكريم فرداً واحداً بمثابة أمة كاملة، لما كان يتمتع به من صفات ومواصفات عظيمة، وهو نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .[2]

وكان العرب يقولون عن المتفوق في شجاعته وتدبيره: رجل كألف.

فالكفاءة والإبداع هي مصدر قوة الأفراد والشعوب. والمجتمع الأقوى هو الذي تكثر الكفاءات وقدرات الإبداع بين أبنائه.

ولكن كيف تنمو الكفاءات؟ وكيف تتفجر الكفاءات؟ ولماذا تزخر بعض المجتمعات بالمبدعين والمتفوقين، بينما تعاني مجتمعات أخرى من القحط والفقر؟

---

(١) ابن حنبل: الإمام أحمد/ مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٢٢٧٦٠.

(٢) سورة النحل: آية١٢٠.

هناك عوامل وأسباب عديدة تؤثر في مستوى حركة الإبداع والتفوق في أيِّ مجتمع، لعل من أبرزها: مدى ما تجده الكفاءة من تشجيع واحترام، فالمجتمعات المتقدمة عادة ما تحـــرص على توفير أكبر قدر من الاحترام والتشجيع للطاقات والقدرات المتميزة من أبنائها، بينمـــا تنعدم أو تتضاءل مثل هذه الحالة في المجتمعات المتخلفة.

احترام الذات:

احترام الكفاءة والإبداع مظهر للرقي وطريق للتقدم.

فالإنسان السّويّ، يختزن في أعماق نفسه، مشاعر إعجاب وتقدير، لكل كفاءة متميزة، وإبداع خلاّق، ودون ذلك لا يكون إنساناً سويّاً أبداً، لكن امتلاك قدرة التعبير عن تلـــك المشاعر، والمبادرة لإبرازها هو سمة الراقين المتحضّرين.

إن من يظهر مشاعر تقديره للكفوئين المبدعين، إنما يسجّل احترامه لذاته أولاً، بـــالتعبير عما تختزنه من انطباعات، ومنحها جدارة التقديم والعرض، بينما يشـــكك ضـــعفاء الثقـــة بذواتهم، في استحقاق مشاعرهم للإظهار والإبراز، ويبخلون على أنفسهم بفرصة التعبير عما يختلج فيها، لضعف احترامهم لها.

أمراض التخلف:

وقد تتراكم على نفس الإنسان حجب قاتمة من نوازع الأنانية والحسد، تمنعه من إعلان تقديره للمستحقين للتقدير، وذلك خلق سيئ، وحالة مرضية، لا علاج لهـــا إلا بـــالوعي الصحيح، والتربية الفاضلة، وممارسة جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر.

إن البعض تمتلئ نفسه بحب ذاته بشكل نرجسيّ، ويسيطر عليه الغرور، وتتضخم لديـــه الأنا بحيث لا يرى أحداً غيره مستحقاً للمدح والتقدير، بل ويتزعج ويتذمر حينمـــا يشـــاد بآخرين، وقد يكون ذلك ناتجاً من شعور عميق بالنقص والضعف، يستثيره ذكـــر كمـــال

الآخرين وتفوقهم.

وقد يشعر بعض من يجد في نفسه الكفاءة بالغبن حينما يرى تكريم غيره من المبـــدعين، والحقيقة إنه يجب أن يغتبط ويفرح بذلك، لأن تقدير أيّ كفاءة في المجتمع، يعتبر تكريســـاً لمنهجية صحيحة، إذا تأكد وجودها، فستشمله بركاتها وآثارها كغيره من المؤهلين.

ولشيوع مثل هذه الأمراض في نفوس أبناء المجتمعات المتخلفة، عادة ما يتأجل تقـــدير الكفوئين، من العلماء والأدباء والمصلحين إلى ما بعد وفاتهم، ومغادرتهم الدنيا إلى الآخـــرة، عندها تُعقد مجالس التأبين لذكر محاسنهم، وتعداد فضائلهم، وإعلان الحسرة على فقـــدهم، بينما كانوا في حياتهم مجهولين أو متجاهلين.

وكما قال الشاعر (عبيد بن الأبرص):

لأعرفنك بعد الموت تنـــدبني وفي حياتي ما زودتـــني زادي

وذكروا في ترجمة العالم الجليل الشيخ عبد العلي بن جمعـــة الحـــويزي (تـــوفي ســـنة ١١١٢هـــ) صاحب التفسير المعروف (نور الثقلين) وهو من علماء الأهواز، وكان معاصراً للشيخ المجلسي صاحب بحار الأنوار، والحر العاملي صاحب الوسائل، أن تلميذه السيد نعمة الله الجزائري، سأل أحد العلماء، عن قيمة ومستوى كتاب تفسير (نور الـــثقلين) لأســـتاذه الشيخ الحويزي، وقال: إن كان هذا التفسير قابلاً للاستكتاب، مشتملاً على جملة من الفوائد كتبناه وإلا فلا؟

فأجابه ذلك العالم الكبير عن سؤاله بما يلي: ما دام مؤلفه حيّاً فلا تساوي قيمته فلســـاً واحداً، وإذا مات فأوّل من يكتبه أنا، وهذا إخبار عما في الضمير، ثم أنشد:

ترى الفتى ينكر فضـــل الفـــتى ما دام حيّـــاً فـــإذا مـــا ذهـــب

لجّ به الحـــرص علـــى نكتـــة يكتبها عنـــه بمـــاء الـــذهب [١]

(١) الحويزي: الشيخ عبد العلي/ تفسير نور الثقلين، ترجمة المؤلف ج١ ص٨، الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة التاريخ

التقدير والتطوير:

التفوق والإبداع لا يتأتى إلا ببذل جهد، وتحمّل عناء، لذلك يكون المتفوقون قلة، لأن أكثر الناس يتقاعسون ولا يرغبون في إتعاب أنفسهم وإجهادها، وقديماً قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يُفقر والإقدام قتّال

وهنا يأتي دور التشجيع والتقدير، في رفع معنويات روّاد الإبداع والتفوق، وامتصاص آثار التعب والعناء الذي يواجهونه في طريقهم، مما يجعلهم أكثر عزماً وتصميماً على الإنجاز والتقدم.

إن تقدير الكفاءة يساعد على تنميتها وتطويرها، ويدفع أصحابها إلى المزيد من العطاء والإنجاز، ويكرّس في نفوسهم حبّ مجتمعهم، والإخلاص إليه، والتفاني في خدمته، بينما تجاهل الكفاءات قد يثبّط نشاطها، ويصيبها بالإحباط، وفي أحسن الفروض، تسلك طريق النزوح والاغتراب، وما يصطلح عليه الآن بهجرة الكفاءات والأدمغة.

الطموح للتفوق:

إن تكريم المبدعين يرفع درجة الطموح والتطلع نحو التقدم والإبداع لدى أبناء المجتمع، لذلك تجتهد المجتمعات المتقدمة في وضع البرامج، وابتكار الأساليب، لتقدير الكفوئين من أبنائها، بالاحتفاء بهم إعلاميّاً، وتكريمهم اجتماعيّاً، ورصد الجوائز والأوسمة لهم، وتوفير وسائل العيش الكريم، والخدمات اللازمة لفاعليتهم ونشاطهم.

وقد أخذت مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة عن المجتمعات المتقدمة بعض عادات الاهتمام، وبرامج التقدير للمتفوقين، لكنها تكاد تنحصر في الاهتمام بالمتفوقين في القوى

العربي- بيروت.

البدنية كالرياضيين، والقدرات الفنية كالمغنيين.

في عام ٢٠٠٠م قام أحد أنديتنا الرياضية في المملكة بشراء لاعب من ناد آخر بمبلغ ٩ مليون ريال، نصيب اللاعب مليوني ريال وراتبه الشهري ٢٥ ألف ريال. وقبل فترة تم تكريم لاعب من أحد الأندية بمناسبة اعتزاله وقدمت له هدايا بمبلغ ٤٠٠ ألف ريال.

وذكر موقع (اللاعب) على الإنترنت أنه: أعلنت اللجنة المنظمة لحفل اعتزال لاعب بمناسبة اعتزاله اللعب خلال الأشهر القادمة بأن تكلفة إقامة حفل الاعتزال أكثر من مليون ونصف وستكون في مدن الرياض وجدة والدمام.. وبلغ عدد رجال الأعمال الذين أبدوا مساهمتهم في التكريم إلى (٢٤٥) شخصية.. ومن المنتظر أن يبلغ إجمالي الهدايا ما مقداره ٤ مليون ريال.

وقبل فترة أفردت مجلة (المجلة) ملحقاً حول أجور الفنانين العرب، جاء فيه: تصل حصص كبار الفنانين السعوديين إلى ٦٠٠ ألف ريال مقابل النسخة الأصلية من الشريط، ونسبة من توزيعه تختلف باختلاف الفنان، فمنهم من يحصل على ريال مقابل كل شريط أو ريالين، وأحياناً تصل إلى ثلاثة ريالات، وهذا يعني أن دخل الفنان من الكاسيت فقط يصل لأكثر من مليون ونصف سنويّاً، إذا افترضنا أنه يطرح شريطين في السنة.

وتتراوح أجرة إحياء الحفلات الخاصة من قبل كبار الفنانين بين ٨٠ إلى ١٠٠ ألف ريال للحفلة الواحدة، دون أجر الفرقة المصاحبة[1].

أما العلماء، والمفكرون، والأدباء المبدعون، وسائر الكفاءات النافعة، فهي في الكثير من أقطار العالم الثالث تتمنى السلامة على نفسها، فضلاً عن أن يتوفر لها الاهتمام والتقدير، حتى قال أحد الأدباء (الشاعر العراقي أحمد مطر) معبراً عن هذه الحقيقة المرّة:

((قال أبي

---

(١) مجلة (المجلة) عدد ٨٧٨ بتاريخ ٨ -١٤ ديسمبر ١٩٩٦م.

في كل قطر عربي

إن أعلن الذكي عن ذكائه فهو غبي))

بالطبع، لا يمكن التعميم، فهناك بشائر طيبة وبوادر مشجعة هنا وهناك، لكن المقصود هو الحالة العامة والوضع السائد في الوطن العربي والعالم الإسلامي، قياساً على إمكاناته الهائلة، ومقارنة بأوضاع المجتمعات الأخرى. ومما يشاد به عندنا في المملكة جائزة الملك فيصل العالمية وبرامج تكريم المتفوقين دراسيّاً في كل عام.

احترام الكفاءة لذاتها:

إن الكفاءة يجب أن تحترم لذاتها وعطائها، من أي عائلة انبثقت، وإلى أي طبقة انتمت، ومن أي طائفة كانت، وبغض النظر عن اتجاهها الأيديولوجي والسياسي والمذهبي.

هكذا يأمر العقل وإلى هذا يرشد الشرع.

يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.[1]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي النجدي في تفسيره لهذه الآية:

((﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم. ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: بغضهم. ﴿عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، فلو كان كافراً أو مبتدعاً. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق))[2].

وفي ثلاثة موارد من القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: آية ٨.

(٢) السعدي: عبدالرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٣٢.

(٣) سورة الأعراف: آية ٨٥، سورة هود: آية ٨٥، سورة الشعراء: آية ١٨٣.

والبخس – كما يقول ابن عاشور–: هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هـــو حقيـــق بكمال في نوعه.

ولنتأمل قوله تعالى ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ ولم يقل المسلمين أو المؤمنين فقـــط. ومـــن مسلّمات الفقه الإسلامي عدم جواز البخس والظلم على أيِّ إنسان إلاّ أن يكـــون معتـــدياً فيقاوم عدوانه.

و﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ تشمل الحقوق المادية والمعنوية، فكما لا يجوز أن تبخس أحداً من الناس شيئاً من حقوقه المادية، كذلك لا يصح أن تبخس شيئاً من حقوقه المعنوية.

وفي تراثنا الإسلامي تأكيد على خلق الإنصاف من مادة (نَصَفَ). يقال في اللغة أنصف النهار: أي انتصف، وأنصفَ الشخص إذا عدل. وتناصف القوم: أي أنصف بعضهم بعضاً من نفسه. وقيل: إذا تعاطوا الحق بينهم. وقال في القاموس: انتصف منه: استوفى حقه منـــه كاملاً.

ومن تعريفات علماء الأخلاق للإنصاف أنه: استيفاء الحقوق لأربابها.

ومن روائع حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: ((الإنصاف يرفـــع الخـــلاف ويوجب الائتلاف)) وقال عليه السلام: ((زكاة القدرة الإنصاف)).

وفي السيرة النبوية: نقرأ كيف احترم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سَفَّانة بنت حاتِم الطائي، الذي مات على الكفر قبل الإسلام. وأمر بإطلاق سراحها من السبي قائلاً: ((خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. وإن الله يحب مكارم الأخلاق)).

ونقرأ في تاريخنا أيام عزة الحضارة العربية كيف أن الشريف الرضي العالم الفقيه (٣٥٩–٤٠٦هـــ) يشيد بأدب وشخصية أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي – وهو على ديـــن الصابئة – في مراسلاته له بالشعر والنثر ثم يبكيه ويرثيه بقصيدة تعتبر من أروع قصـــائده في الرثاء ومطلعها:

أعلمت من حملـــوا علـــى الأعـــواد أرأيت كيف خبا ضـــياء النـــادي

جبل هوى لو خرّ في البحر اغتـــدى مـــــن وقعـــه متتـــابع الإزبـــــاد

ما كنت أعلم قبل حطّك في الثـــرى أن الثرى يعلـــو علـــى الأطـــواد

إلى أن يقول:

الفضل ناسب بيننا إن لم يكـــن شـــــرفي مناســـبه ولا مـــيلادي

وينقل الثعالبي في يتيمة الدهر: أن الشريف الرضي مرَّ يوماً بقبر أبي إسحاق الصابي وهو بالجنينة من أرض كرخايا فقال:

أيعلـــم قـــبر بالجنينـــة أننـــا أقمنا به ننعـــى النـــدى والمعاليـــا

عطفنا فحيينا مســـاعيه إنهـــا عظام المساعي لا العظـــام البواليـــا

إلى آخر قصيدته وهي ٣٥ بيتاً[١].

وكذلك فعل أخوه السيد المرتضى علم الهدى حيث رثى أبا إسحاق الصابي بقصـــيدة رائعة.

هكذا كان أسلافنا يحترمون الكفاءة لذاتها وعطائها.

وهكذا يشجعنا الإسلام على الاعتراف بفضل ذوي الفضل، يقول تعالى ﴿وَلاَ تَنسَـــوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٢].

ويأمرنا بشكر من يستحق الشكر، حيث روى الإمام محمد الباقر عن جده رســـول الله ﷺ أنه قال: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))[٣].

---

(١) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك/ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج٢ ص٣٦٦، الطبعـــة الأولى١٤٠٣هــــ دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٧.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ وسائل الشيعة، ص٣١٣ حديث رقم ٢١٦٣٧.

التديّن والتعّقل

تدور في أوساط بعض المتدينين، أفكار تخالف العقل والمنطق، هـــي أشـــبه بالأســـاطير والخرافات.. وينظر البعض منهم إلى الحياة والأشياء والأحداث نظرة ساذجة متخلفة.. كما تصدر من بعض الجهات الدينية ممارسات ومواقف سيئة شائنة.. والمؤلم في الأمر أن تلـــك الأفكار والنظرات والمواقف، تنسب إلى الدين، مما أوجد إشكالاً وتساؤلاً حول مدى التوافق والعلاقة بين الدين والعقل.. فهل يعني التدين تغييب العقل؟ وهل الدين بديل عن العقل؟

إن البعض من أولئك المتدينين، حينما تناقشهم حول آرائهم وأفكارهم وممارساتهم، على ضوء العقل والمنطق، يغلقون باب النقاش والحوار، على أساس أن قضايا الدين تعبّديّـــة، وأن دين اللّه لا يصاب بالعقول، فما هي حقيقة العلاقة بين الدين والعقل؟ وهل التـــدين يعـــني تجميد دور العقل وإلغاءه؟

التلازم بين الدين والعقل:

العقل نعمة كبرى ميّز اللّه تعالى بها الإنسان على سائر المخلوقات، والدين رسالة وهدي إلهي، أنعم اللّه تعالى به على الإنسان، فمصدر العقل والدين واحد، وهو اللّه سبحانه وتعالى، وهما متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وإذا ما رأينا انفكاكاً وانفصالاً بـــين الـــدين والعقل، فيجب أن ندقق النظر، لنكتشف نقطة غموض واشتباه، فيما اعتبرناه ديناً أو عقلاً، فالدين الصحيح لا يصادم العقل السليم.

والعلاقة بين الدين والعقل، علاقة تكامل ودعم متبادل، حيث يرشد العقل إلى الـــدين،

ويوجه الدين إلى العقل.

لذا تكرر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1].

والوحي الإلهي إنما يخاطب العقلاء، ويستنهض عقولهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [2] ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ.هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [3] أي ذوي العقول.

ولو استقرأنا نصوص السنة النبوية، وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، لوجدناها تؤكد التلازم الوثيق بين الدين والعقل.

فعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له))[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له))[5].

وعن الإمام علي عليه السلام: ((العقل رسول الحق))[6] ((أصل الإنسان لبه، وعقله دينه))[7].

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: ((إن للّه على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول))[8].

التدّين والتعقّل:

وإذا كانت العلاقة بين الدين والعقل علاقة تلازم، لا انفصال فيها ولا انفكاك، فكيف نفسّر إذاً تلك الظواهر السيئة في حياة المتدينين؟

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٢) سورة الزخرف: آية ٢.

(٣) سورة غافر: الآيتان ٥٣- ٥٤.

(٤) الهندي: على المتقي/ كنز العمال ج٣ ص٣٧٩ رقم ٧٠٣٣.

(٥) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٤ ص١٤٣.

(٦) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٧) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج١ ص٨٢.

(٨) المصدر السابق: ص١٣٧.

في الواقع إن بعض المتدينين يسيئون فهم الدين، ويجمدون عقـــولهم لجهلـــهم ولســـوء فهمهم، ثم يحسبون أنفسهم وتصرفاتهم على الدين، وبذلك يضرون أنفســـهم، ويشـــوّهون الدين، وهذا ما حذّرت منه الأحاديث والنصوص الدينية، التي تؤكد أهمية التعقل في حيـــاة الإنسان المتدين، وإلاّ فمن ينتسب إلى الدين، ويحمل شعاره وعنوانـــه، ويمـــارس عباداتـــه وطقوسه، لكنه غير مستخدم لعقله، ولا مستثمرٍ لفكره، فإن تدينه سيكون مبتوراً ناقصاً، بل مشوّهاً قاتماً.

عن أنس بن مالك ﷺ، قال: أثنى قوم على رجل عند رسول اللّـــه ﷺ. فقـــال ﷺ: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول اللّه نخبرك عن اجتهاده في العبـــادة وأصـــناف الخـــير، وتسألنا عن عقله؟! فقال ﷺ: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفـــاجر، وإنمـــا يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم[1].

والحديث الشريف يفضح تصرفات بعض المتدينين الحمقى، الذين انعدم لديهم الـــوعي، وغاب العقل، فأصبحت ممارساتهم أسوأ من فجور الفاسقين، لأنها تشوّه صورة الدين، وسمعة المتدينين، وما يحصل الآن في الجزائر وأفغانستان وباكستان، من مذابح وفظائع واحتـــراب، يمارس باسم الدين، شاهد على ذلك.

وفي حديث آخر يحذّرنا رسول اللّه ﷺ من الاغترار بمظاهر التدين عند أيّ إنسان، إذا لم نتأكد من تعقلّه، لأن التعقّل هو مقياس التدين، وميزان التقويم، يقول ﷺ: ((إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنما يُجازى بعقله)) [2].

وتطبيقاً لهذا التوجيه النبويّ، قال سليمان: قلت لأبي عبد اللّه جعفر الصـــادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا. قال: فقال: كيف عقله؟ فقلت: لا أدري. فقال:

---

(١) المصدر السابق: ص٨٤.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص١٠٦.

إن الثواب على قدر العقل[1].

إن مشكلة بعض المتدينين أنهم يحجّمون الدين بحدود فهمهم الضعيف، وإدراكهم الساذج، ثم يعتبرون ما عداه كفراً وفسقاً، كما ينقل عن أحد المشايخ الذي كان يشرح لتلامذته عبارة فقهية تقول: إذا وقعت الفأرة في السمن فخرجت حيّةً يبقى السمن طاهراً حلالاً. ومعنى العبارة أن الفأرة لم تمت في السمن، وإنما خرجت حيّة -أي على قيد الحياة- لكن الشيخ فسّرها: أن الفأرة تخرج حيّةً - أي ثعباناً، فناقشه أحد تلامذته: كيف تقع الفأرة في السمن ثم تخرج ثعباناً؟ وبدلاً من أن ينتبه الشيخ لخطئه، أصرَّ على كلامه، وطرد التلميذ من الدرس، متهماً إياه بالكفر والتشكيك في قدرة اللّه تعالى، أليس اللّه قادراً على أن يحوّل الفأرة إلى ثعبان؟!

التعقل واتّباع الزعامات الدينية:

تقوم بعض الزعامات الدينية بدور رئيس في تغييب حالة التعقل في الساحة الإسلامية، وتكريس حالة السطحية والتخلف على المستوى الديني، وذلك إما لمحدودية وعيها وفكرها، أو لأنها تستفيد من الوضع المتخلف، فتحافظ عليه، وتنمّيه بدافع مصلحي.

وهنا يحتاج التدين إلى التعقل في مسألة اتّباع الزعامات، والقيادات الدينية والاجتماعية، فالمسلم ليس معذوراً في تسليم قياده، وأزمّة أمور دينه، لأيٍّ أحد، ما لم يحرز عدالته واستقامته، وحتى العالم العادل، لا يصح اتّباعه بعين مغمضة وثقة عمياء، ما دام ليس معصوماً، ومعرضاً للانحراف والخطأ.

فلا بد من التفكير والتعقل في اختيار الجهة الدينية التي تتبعها، سأل بن السكيت الكوفي رضي الله عنه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: ما الحجة على الخلق اليوم؟ فأجاب الإمام

(١) المصدر السابق: ص٨٤.

عليه السلام: العقل، يعرف به الصادق على اللّه فيصدّقه، والكاذب على اللّه فيكذبه.

فقال ابن السكيت: هذا واللّه هو الجواب[1].

وعالم الدين محكوم بمبادئ الدين، وضوابط العقل، فينبغي أن نقوّم آراءه ومواقفه على ضوء ذلك، ولا يصح اتباعه وإطاعته فيما يخالف الدين، ويتنافى مع العقل.

جاء في صحيح البخاري عن أبي عبد الرحمن عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم سريّة -فرقة صغيرة من الجيش- فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها. فقال: ادخلوها، فَهَمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف[2].

إن القرآن الحكيم يذمّ النصارى لأنهم قلدوا زعاماتهم الدينية تقليداً أعمى، واتبعوهم اتباعاً مطلقاً، دون أية ضوابط من دين أو عقل، فكأنهم بذلك يؤلهونهم ويعبدونهم من دون اللّه.

يقول تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [3].

قال عدي بن حاتم: قلت لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: إنا لسنا نعبدهم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: أليس يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرِّمونه، ويحلّون ما حرم اللّه فتستحلونه؟ قال: قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم[4].

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص١٠٥.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل/ ج٣ ص٣٢٢ كتاب المغازي، رقم ٣٤٠ المكتبة الثقافية – بيروت.

(٣) سورة التوبة: آية ٣١.

(٤) الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان ج٥ ص٤٣ الطبعة الأولى ١٩٩٥م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت.

وعن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: أما واللّه! ما صاموا لهم ولا صلوا، ولكنهم أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون[1].

وحينما قرر طلحة والزبير، وهما صحابيان معروفان عند المسلمين، ومعهما أم المؤمنين عائشة، زوج رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، مواجهة الخلافة الشرعية، المتمثلة في أمير المؤمنين علي عليه السلام، التبس الأمر على بعض المسلمين، فجاء الحارث بن حوط إلى الإمام علي عليه السلام قائلاً: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فأجابه الإمام: يا حارث، أنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، أنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه[2].

إن بعض المتدينين قد تبهرهم شخصية عالم ما، ويبالغون في تقديسه، فيرسلون قوله إرسال المسلمات، دون وعي أو تفكير، وهذا خلاف توجيهات الدين. روي عن علي عليه السلام: ((خذ الحكمة ممن أتاك بها، وانظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال))[3].

وفي رواية جميلة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقّاد الكلام، فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب اللّه، كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموّهة، النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء))[4].

ياله من توجيه رائع يستنهض العقل لأداء دور النقد والتقويم، تجاه الآراء والأفكار ((كونوا نقّاد الكلام)) ويحذّر الإنسان من أن ينطلي عليه التمويه والتدليس ((فكم من ضلالة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، قصار الحكم٢٦٢.

(٣) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم، ج١ ص٣٥٥.

(٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢ ص٩٦ رقم٣٩.

زخرفت بآية))، وعلى الإنسان أن يتحلّى بالبصيرة والوعي، ليكون خبيراً مميزاً بين الصحيح والخطأ، على ضوء مبادئ الدين والعقل.

مرجعية العقل:

١- في المعتقدات الأساس للدين يكون العقل هو المرجع، وعبر النظر والفكر يتوصل الإنسان إلى الإيمان بأصول الدين، ويرى أكثر العلماء المحققين وجوب التزام العقيدة عن طريق العقل لا النقل والتقليد، بل ادّعى العلامة الحلي رحمه الله الإجماع على ذلك فقال: ((أجمع العلماء على وجوب معرفة اللّه، وصفاته الثبوتية، وما يصح عليه، وما يمتنع عنه، والنبوة، والإمامة، والمعاد، بالدليل لا بالتقليد))[1].

٢- في التشريع الإسلامي يستقل العقل بمرجعية قسم من الفروع والأحكام يقول السيد محمد تقي الحكيم: ((إن العقل مصدر الحجج وإليه تنتهي، فهو المرجع الوحيد في أصول الدين، وفي بعض الفروع التي لا يمكن للشارع المقدس أن يصدر حكمه فيها، كأوامر الإطاعة، وكالانقسامات اللاحقة للتكاليف، من قبيل العلم والجهل بها، أو اعتبار التقرب بها، إذا أُريد اعتبارها بجعل واحد شروطاً للتكاليف، للزوم الدور أو التسلسل فيها، بداهة إن إطاعة أوامر الإطاعة مثلاً إما أن ترجع إلى العقل أو تتسلسل إلى غير النهاية، إذ لو كانت شرعية لتوجه السؤال عن لزوم إطاعتها، فإن كان شرعيّاً توجه السؤال عن لزوم إطاعته، وهكذا فلا بد أن يفترض فيها أن تكون عقلية، وما ورد من الأوامر الشرعية بالإطاعة، فإنما هو إرشاد وتأكيد لحكم العقل، لا أنها أوامر تأسيسية))[2].

٣- وبالعقل يفهم الإنسان سائر أوامر الدين، ويستنبطها من نصوصه ومصادر

---

(١) الأنصاري: الشيخ مرتضى/ فرائد الأصول ج١ ص٣٨٢، الطبعة الاولى١٩٩١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت.

(٢) الحكيم: محمد تقي/ الأصول العامة للفقه المقارن ص٢٩٩، الطبعة الثانية ١٩٧٩م، دار الأندلس- بيروت.

تشريعاته، فهو لا يستقل فيها بالتشريع، لأن المشرع هو اللّه سبحانه وتعالى، والوحي هـــو مصدر التشريع، لكن فهم كلام الوحي، ومعرفة مصاديقه، وموارد انطباقاته، وتشـــخيص موضوعاتها، يكون المرجع فيها إلى العقل.

وهناك ضوابط نقحها وحققها العلماء في مناهج استنباط الأحكام الشرعية، تنظم عملية الاجتهاد لتحصيل الحكم الشرعي.

ويلخص الأستاذ المدرسي الدور المرجعي للعقل، ومدى تكامله مع الوحي، في بحثه القيم عن التشريع الإسلامي فيقول: ((وظيفة العقل التعرف على الوحي، وفهمه، ومعرفة حَمَلتـــه ومعرفة كيفية تطبيقه على الحقائق الفرعية))[1].

---

(١) المدرسي: السيد محمد تقي/ التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده، ج١ ص١٠، الطبعة الأولى١٩٩١م، دار الرائـــد العربي- بيروت.

الحالة الدينية ومرض الغرور

الغرور لغة: مصدر قولهم غرَّه يَغُرُّه، وهو مأخوذ من مادة(غ ر ر) الـتي تـدل علـى النقصان، والمراد نقصان الفطنة.

اغترَّ بالشيء: خُدع به. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.(1) أي ماخدعك.

قال ابن منظور: غرَّه يغُرّه: خدعه وأطمعه بالباطل.

واصطلاحاً عرفه الجرجاني بأنه: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وقال الكفويُّ: هو تزيين الخطأ بأنه صواب. وعرفه بعض بأنه إخفاء الخدعة في صورة النصيحة.

ويمكن أن نستخلص من التعريفات المختلفة، ومن الاسـتخدام المتـداول في الثقافـة المعاصرة: أن الغرور هو مبالغة الإنسان في تقدير حجم إمكاناته وقدراته، أو اعتماده علـى قوة غير حقيقية.

ألوان الغرور:

هناك ألوان مختلفة من الغرور قد تصيب الإنسان، منها اغتراره بحسبه ونسبه، واعتقـاده بأن انتماءه لهذه العائلة كفيل بنجاحه في الدنيا ونجاته في الآخرة، وبذلك يتوانى عن السـعي والعمل والاجتهاد.

يقول الإمام علي عليه السلام: ((من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه)).

---

(1) سورة الانفطار: آية ٦.

وقد يغترّ الإنسان بماله وثروته، فيرى ذلك مصدراً للكمال المطلق، ولتحقيق كل التطلعات، غافلاً عن اكتساب سائر مقومات القوة.

وقد يغترّ الإنسان بمستواه العلمي، فيتصور أنه وصل إلى قمة العلم، وأن لا أحد يدانيه في مكانته العلمية، فيتوقف عن التقدم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] ويقول تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.[2] وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من قال: أنا عالم فهو جاهل)).

كما تحدث القرآن الكريم في العديد من آياته محذراً من الاغترار بالدنيا، بأن يُستغرق الإنسان في شهواتها وإغراءاتها، دون التفات إلى المكاسب المعنوية، والمصير الأخروي. قال تعالى:. ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [3].

وأساس الغرور في كل ألوانه واحد، وهو الجهل أو الغفلة وتبرير التقاعس والكسل، للتوقف عن الاجتهاد والسعي، ونتيجته دائماً هي التراجع والفشل والسقوط أمام التحدي والامتحان، يقول الإمام علي عليه السلام ((كفى بالاغترار جهلاً)). ((من جهل اغترّ بنفسه وكان يومه شرّاً من أمسه)).

الغرور الديني:

هناك لون خطير من ألوان الغرور قلّ أن تسلّط عليه الأضواء، وهو الغرور الديني، ونعني به أن يعتقد الإنسان امتلاكه للحقيقة الدينية المطلقة، دون استعداد للبحث والنقاش، وأنه أفضل ذاتاً من الآخرين، وأن مجرد انتمائه وانتسابه لهذا الدين أو المذهب، وقيامه بهذه الممارسة الدينية، يعني الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٥.

(٢) سورة يوسف: آية ٧٦.

(٣) سورة لقمان: آية ٣٣.

هذا النوع من الغرور يشلُّ فكر صاحبه، ويجمِّد عقله، وينحرف به عن الطريق القويم، ويوفر له الأعذار والتبريرات لكل تقصير أو خطأ يصدر منه. كما يدفعه إلى التعالي على الآخرين والاستهانة بحقوقهم.

والأسوأ من ذلك أنه يقدم نموذجاً مشوّهاً للدين أو المذهب الذي ينتمي إليه.

يقول الشيخ محمد الغزالي: أفسد شيء للأديان غرور أصحابها، يحسب أحدهم أن انتماءه المجرد لدين ما قد ملّكه مفاتيح السماء، وجعله الوارث الأوحد للجنة! ومن ثم فإن صاحب هذا التدين يتوسل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب، بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية.[1]

لكن الدين الحقيقي لا يوجد الغرور في نفس الإنسان، وإنما هي حالة دخيلة، ناشئة عن سوء فهم للدين، أو تحريف لتعاليمه، وبالتالي فهي نوع من الافتراء والكذب على الله، يقول تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2] فمنشأ الغرور ما افتروه على الدين، وليس من ذات الدين.

وقد تحصل الإضافة والافتراء على الدين من قبل شخص أو جماعة، لكنها تؤسس لنهج خاطئ يسير عليه التابعون. وهنا تأتي ضرورة الوعي والبصيرة في الدين،حتى لا يجد الإنسان نفسه مخدوعاً في دينه. إن هناك عدة مظاهر لهذا المرض الخطير على الإنسان أن يتأمل نفسه، ويتفحص سلوكه، ليتأكد من سلامته من هذه الأعراض.

الأحقية دون نقاش:

من الطبيعي أن يعتقد كل إنسان بصحة ما يعتنقه من دين أو مذهب، لكن ذلك يجب أن يتأسس على الدراسة والبحث الموضوعي، فقد وهب الله تعالى للإنسان عقلاً يدرك به

---

(١) الغزالي: محمد/ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص٢٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٤.

الحقائق، ويهتدي به إلى الصواب، والعقيدة لا ينبغي أن يأخذها الإنسان كموروث عائلي، أو كاستجابة لأعراف البيئة الاجتماعية. وإنما عليه أن يستخدم عقله بالشكل الصحيح، بعيداً عن تأثيرات الأهواء والمصالح. وأن يعتمد على لغة الدليل والبرهان. يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.(١)

ومع مرجعية العقل، واعتماد حجيّة البرهان، لا يخشى الإنسان المتدين من الانفتاح على مختلف الآراء، بل يدرسها ويمحصّها ليكتشف الأحسن و الأقرب إلى الحقيقة والصواب. ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.(٢)

هذا هو مقتضى التدين الواعي، أما المصاب بمرض الغرور الديني، فعادة ما يرفض أي بحث أو نقاش، ويكتفي بادّعاء الأحقية المطلقة، فهو وحده على الحق، والآخرون كفار مبتدعون وفي ضلال مبين!! وبذلك يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين، سواء كان في أصل الدين أوفي قضية من قضاياه.

التعالي على الآخرين:

اعتقاد الإنسان بأحقية دينه ومذهبه، لا يعني الاعتقاد بعلو الذات على الآخرين، ولا يسوّغ ممارسة التعالي على الغير، بالاستهانة بهم، وانتهاك حقوقهم، والإساءة إليهم.

فينبغي التمييز بين الاعتقاد بعلو المبادئ والقيم، وبين الاعتقاد بعلو الذات.لأن سمو الذات يرتبط بمدى التزامها بالقيم والمبادئ، وهي لا تشرِّع للظلم، ولا تقبل انتهاك حقوق الغير.

لذلك نجد التعاليم الدينية الحقة، تؤكد احترام الآخرين والإحسان إليهم. إن الله تعالى

---

(١) سورة البقرة: آية ١١١.

(٢) سورة الزمر: آية ١٨.

يصف المتقين بأنهم الذين: ﴿ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا﴾.[1] ويأمر المؤمنين باستخدام الخطاب الأحسن مع الناس: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[2]

ولو تأملنا النصوص الدينية الواردة في احترام حقوق أبناء الديانات الأخرى (أهل الكتاب)، لرأينا مدى اهتمام الإسلام بتربية أبنائه على رعاية حقوق الآخرين، فقد أخرج أبو داود في سننه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة))[3]

وكان نبي الإسلام محمد ﷺ يظهر الرعاية والاحترام للآخرين، مع إعراضهم عن التصديق بدعوته الواضحة، بل ومع كل محاولاتهم ومؤامراتهم ضده وضد رسالته، حتى أنه ﷺ كان يبدي الاحترام لجنائز موتاهم فضلا عن الأحياء.

أخرج البخاري عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه قال: مرّ بنا جنازة، فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم فقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي؟ قال: ((إذا رأيتم الجنازة فقوموا)) وفي حديث آخر: إن النبي صلى الله عليه وسلم مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: ((أليست نفساً؟)) [4].

وفي هذا السياق تأتي توجيهات أئمة الهدى حتى في التعاطي مع العصاة المذنبين، فانحرافهم لا يبرِّر الحقد عليهم، و الإساءة إليهم، من قبل المتدينين الصالحين، بل ينبغي مساعدتهم على تجاوز ما وقعوا فيه، سئل الإمام موسى عليه السلام : الرجل من مواليكم يكون عارفاً يشرب الخمر، ويرتكب الموبق من الذنب نتبرأ منه؟ فقال عليه السلام: ((تبرؤوا من فعله ولا

(١) سورة القصص: آية ٨٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ٥٣.

(٣) السجستاني: أبو داود/ سنن أبي داود، حديث رقم ٣٠٥٢.

(٤) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري، حديث رقم ١٣١١- ١٣١٢.

تتبرؤوا منه، أحّبوه وأبغضوا عمله))[1]

الانتماء الرسمي:

الدين ليس قبيلة ينتمي إليها الإنسان، ولا جنسية بلد يحملها، إنه قيم ومبادئ، ومنهج وسلوك، والتدين الصادق هو الالتزام بقيم الدين، والسير على نهجه، بيد أن المبتلين بمرض الغرور الديني، يخدعون أنفسهم بالاكتفاء بالانتماء الرسمي. والاسمي للدين، دون العمل بمبادئه وتشريعاته، ويدعون لأنفسهم الأفضلية، وضمان النجاة في الدنيا والآخرة.

لكن الله تعالى لا يخدع عن جنته، والمقياس هو الالتزام والعمل، وليس الشعارات والادّعاءات، وحينما ادّعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ ذات يوم أنهم غارقون في حب الله تعالى، وزايدوا على الآخرين في دعواهم، نزل الوحي من قبل الله تعالى مطالباً لهم بتصديق دعواهم عملياً باتباع تعاليم الرسول ﷺ، يقول تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ ﴾.[2]

لذلك لا تكاد تجد آية في القرآن تتحدث عن الإيمان إلا وتردفه بالحديث عن عمل الصالحات، لأن الإيمان يجب أن يتجسد في سلوك الإنسان وممارساته.

القرآن يفضح الغرور الديني:

حينما يتحدث القرآن الكريم في العديد من آياته، عما أصاب اليهود والنصارى، من غرور في دينهم، فإنه لا يقصد مجرد الذم والتشهير بهم، وإنما يريد تقديم الدرس والعبرة، وتحذير المجتمع المسلم من الوقوع في المنزلق ذاته، والسقوط في الهاوية نفسها.

لذلك جاء الحديث مفصلاً عن ادعاءاتهم النابعة من الغرور مع تسليط الأضواء على

---

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٥ ص١٤٧.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣١.

منطلقاتها الخاطئة، وكشف ثغراتها الجذرية.

١/ فهم يدّعون أن الجنة حكر عليهم وملك لهم، لا يدخلها غيرهم وقد يدّعي غير اليهود والنصارى مثل هذه الدعوى، لذلك جاء الرد القرآني مفنداً هذا الادعاء بشكل عام، من أي جهة انطلق، فالجنة لا تنال بالأماني، وإنما يجب أن يبرهن الإنسان على استحقاقه لها، بالإخلاص لله تعالى في توجهاته، وبالإحسان في سلوكه، ومن اتصف بهاتين الصفتين كان أهلاً لدخول الجنة، من أي أمة كان، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.(١)

٢/ وكانوا يرون لأنفسهم صلة خاصة بالله تعالى، فهم أبناء الله وأحباؤه دون سائر الخلق، لكن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، وحكمه في الآخرة، تناقض مثل هذه الادعاءات فجميع البشر محكومون بسنن واحدة، ونظام إلهي عادل، لذلك يتعرض المخالف لسنن الله وتعاليمه للعذاب والجزاء دنياً وآخرة، من أي أمة كان، فليس بين الله وبين أحد من خلقه قرابة، وفهم خلقه وعباده جميعاً..

يقول تعالى : ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ...﴾ .(٢)

٣/ ويخدعون أنفسهم بأن الله تعالى سيتساهل في مجازاتهم، ويتسامح معهم، فلا ينالهم عذاب النار، إلا بشكل محدود، وضمن فترة قصيرة، لخصوصيتهم وامتيازهم على الآخرين .

ويدحض الله تعالى قولهم، بأن ذلك نابع من غرورهم، وأن كل إنسان سيحاسب وفق عمله، وليس حسب انتمائه.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١١١- ١١٢.

(٢) سورة المائدة: آية ١٨.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.(١)

هكذا يفضح القرآن الغرور الديني بمنطق إلهي واضح، يقوم على أساس تساوي الخلق أمام الرب تعالى، وأن التفاضل هو بالتزام القيم، وتطبيق المبادئ، وليس بالانتماء الاسمي، ولا بالأمنيات والادعاءات والشعارات .

وهو المنطق المعتمد في الخطاب الإلهي لكل الأمم وأتباع الديانات من يهود ونصارى ومسلمين وغيرهم.

الأئمة يحاربون الغرور الديني:

وعلى هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ جاءت توجيهات أئمة أهل البيت عليهم السلام، تدعو أتباعهم وشيعتهم، إلى الحذر من خداع النفس، والانزلاق في هاوية الغرور الديني حيث قد يتصور البعض أن مجرد محبَّة أهل البيت عليهم السلام، والانتماء إلى مذهبهم وإظهار الولاء والتعاطف معهم كافٍ في تحقيق النجاة والنجاح، خاصة وأن ثقافة معينة قد شكلت إشاعة مثل هذا التصور، تعتمد على بعض الأحاديث الضعيفة، والنصوص المبتورة من سياقها، وعلى سوء الفهم والتفسير لبعض الروايات، وتستعين ببعض مبالغات الشعراء كقول أحدهم:

كل من والى عليَ المرتضى ... لا يهابنّ عظيم السيئات
حبه الإكسير لو ذُرَّ على ... سيئات الخلق صارت حسنات

وقول الآخر:

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٢٤- ٢٥.

ســـــوَّدت صـــــحيفة أعمـــــالي ووكلـــــت الأمـــــر إلى حيـــــدر

أمام هذه الثقافة الخاطئة التي تكرِّس الغرور الديني، وتخالف المنطق الإلهي، تأتي توجيهات أئمة الهدى عليهم السلام، لتأكيد محورية الالتزام بالقيم والمبادئ، وأن ذلك وحده طريـــق النجـــاة والنجاح.

١ــ عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام قـــال: ((لا تـــذهب بكـــم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل)). [١]

وعلى حاشية هذا الحديث في الكافي جاء تعليق الشيخ المجلسي قال فيه: أي لا يـــذهب بكم الشيطان في المذاهب الباطلة، من الأماني الكاذبة، والعقائد الفاسدة، بأن تجترئوا علـــى المعاصي، اتكالاً على دعوى التشيع والمحبة والولاية من غير حقيقة، فإنه ليس شيعتهم إلا من شايعهم في الأقوال والأفعال، لا من ادعى التشيع بمحض المقال.[٢]

٢ــ وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : قال لي : يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه .. يا جابر: لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحب عليّاً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعَّالاً ؟ فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرسول الله خير من علي ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبه إياه شيئًا، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابـــة، أحب العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه، أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جـــابر والله مـــا يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحـــد مـــن حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٧٣.

(٢) المصدر السابق: ص٧٤.

بالعمل والورع.[1]

تحقيق الأفضلية:

نحن لا نعيش في صحراء قاحلة، نردِّد في أجوائها ادّعاء الأفضلية فلا يسمعنا أحد، بل نعيش ضمن عالم مزدحم بالأديان والمذاهب والنظريات والمناهج، وإذا كنا ندّعي أحقية ديننا على سائر الأديان، وأفضلية مذهبنا على بقية المذاهب، فعلينا أن نثبت ذلك ونحققه عبر طريقين:

الأول: الإثبات العلمي المعرفي، بعرض أدلتنا وبراهيننا وتقديم البرامج والمناهج الأفضل، لمعالجة مشاكل الحياة، ورفع مستوى البشرية.

أما إذا كنا عاجزين عن وضع البرامج والمناهج التي نحتاجها لتيسير شؤون حياتنا، فكيف نقنع العالم بأننا نمتلك أفضل منهج، وخير سبيل؟

الثاني: السلوك الحضاري المتميِّز ، فإن الله تعالى جعل خيرية الأمة الإسلامية، مشروطة بدورها الريادي في العالم. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.﴾ [2]

وبحمل رسالة الإصلاح على مستوى البشرية جمعاء ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾.[3]

والمعروف مفهوم شامل لكل ما ينفع الناس، والمنكر عنوان عام لكل ما ينكره العقل والوجدان، إن من المؤسف جدّاً أن تنطلق المبادرات الإنسانية والحضارية من مجتمعات أخرى، بينما تعيش أغلب مجتمعاتنا الإسلامية حالة التخلف والجمود، والعجز حتى عن إصلاح شؤونها، وترتيب أوضاعها.

---

(١) المصدر السابق: ص٧٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران:آية ١١٠.

مما يناقض المكانة التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة.

الكنيسة: تاريخ من الظلم باسم الدين

إنما جاءت الشرائع السماوية والأديان الإلهية، لإقرار العدل في حياة البشـــر، ومقاومـــة الظلم والجور ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيـــزَانَ لِيَقُـــومَ النَّـــاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (١) والقسط هو العدل.

وليس هنالك شيء بعد الشرك باللّه تعالى، أسوأ من الظلم والاعتداء على حقوق الناس. ذلك هو جوهر دعوات الأنبياء والرسل.

لكن المؤسف هو أن بعض أدعياء الأديان، يستغلون مواقعهم القيادية، ويطلقون العنـــان لأهوائهم التسلطية وشهواتهم المصلحية، على حساب كرامة الناس وحريـــاتهم وحقـــوقهم، فيمارسون الظلم والعدوان باسم الدين، وتحت لوائه وشعاراته، وذلـــك لتبريـــر جـــورهم، ولتضليل الناس وإخضاعهم.

وإذا كان الظلم قبيحاً بكل أشكاله وصوره، فإن أبشعه وأفظعه ما يكون باسم الـــدين، فهو تحدٍّ مزدوج لأمر اللّه تعالى، بالافتراء عليه أولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (٢) وبالبغي على عباده ثانياً.

وقد عانت البشرية كثيراً من هذا اللون من الظلم، الذي يمارس بغطاء ديني، مما أحدث ردّة فعل لدى بعض المجتمعات تجاه أصل الدين، وأوجد تياراً إلحاديّاً يتهم الدين بأنه أفيـــون

(١) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٢٨– ٢٩.

الشعوب، وهكذا يكون استغلال الدين أرضية للإلحاد والكفر.

وتمثل الكنيسة المسيحية عبر تاريخها الطويل أبرز مثل لاستغلال الدين، وممارسة الظلم باسمه وتحت شعاراته، فهي تنتسب لنبي اللّه العظيم عيسى أبن مريم عليه السلام، وتسيطر على أكبر رقعة ومساحة دينية من البشر.

هذه الكنيسة، باعتبارها مرجعية الدين المسيحي، والمؤسسة التي ترعى شؤون أتباعه الدينية، أساءت استخدام موقعيتها، فبدلاً من أن تنشر المحبة والعدل، وتدافع عن المظلومين والمستضعفين، وتكافح الجور والظلم، كما هو جوهر الرسالات والأديان السماوية، إذا بها تصبح على العكس من ذلك تماماً.

اعتذار البابا:

لقد ارتفع مستوى الوعي عند الناس وسادت المعرفة، واتضحت الحقائق، فما عادت جماهير الكنيسة خانعة مضللة كالسابق، بل توالت فيها حركات الاحتجاج، وتعالت أصوات النقد والاعتراض، ومن ناحية أخرى فإن سائر الشعوب والمجتمعات طفح بها كيل الظلم والجور، واستعادت شيئاً من ثقتها بنفسها، وبدأت المطالبة بحقوقها وبرد الاعتبار لتاريخها.

كل ذلك كان من الأسباب التي دفعت البابا يوحنا بولس الثاني إلى الاعتراف ببعض الأخطاء، وتقديم الاعتذار وطلب الصفح والمغفرة، عن تاريخ الكنيسة المظلم.

هذه المبادرة من الكنيسة جاءت استجابة لضغوط داخلية وخارجية، حيث تشكلت لجنة من ثمانية قساوسة عملوا لمدة عام كامل، لإعداد دراسة لمراجعة الأخطاء الماضية لدى الكنيسة، وقدموا للبابا مذكرة تتألف من ٤٦ صفحة، وتقرر على أثرها إقامة احتفال خاص في يوم الأحد ١٢ مارس ٢٠٠٠م الذي سمي يوم التسامح لعرض المذكرة وإعلان طلب المغفرة والصفح من قبل البابا.

وأقيم الحفل الديني الضخم (قداس)، في كنيسة القديس بطرس في حاضرة الفاتيكـــان، بحضور، عدد كبير من المسؤولين الإيطاليين، ورجال السلك الديبلوماسي، وجمهور غفير قدر بأكثر من عشرين ألف، داخل الكنيسة والميدان الرئيسي للفاتيكان.

وتعترف المذكرة بأنه على فظاعة الأخطاء التي حصلت في تاريخ الكنيسة ((فإنه لم يرد خلال تاريخ الكنيسة أية دعوة للمراجعة، والتعرض للأخطاء، وطلب المسامحة، وأن أفضـــل المحاولات في هذا المجال، كانت تختصر في نعت القساوسة، الذين مورست في عهودهم بعض الأخطاء، بأنهم كانوا خارجين على طقوس وتعليمات الكنيسة، وربـــط هـــذه الأخطـــاء بأشخاصهم دون الكنيسة نفسها))[1].

عنف الصراع المذهبي:

تحدثت المذكرة عن عنف الصراع المذهبي، وحدّة التفرقة التي حصلت بين أتباع الكنيسة المسيحيين: ((حدثت خلافات كبيرة بين المسيحيين، وخاصة خلال القرن المنصرم، فمـــع بداية القرن الماضي (١٠٥٤م) برزت خلافات حادة بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، واستمرت لفترة طويلة، وتميزت بالعداء، وتبادل الاتهامات، وانعدام الثقة.. ومن الملحوظ أن من العقبات التي تقف دون وحدة المسيحيين هي العوامل الثقافيـــة، والقضـــايا التاريخيـــة، والتعصب الذي يغذي الخلاف بين المسيحيين))[2].

إنها مجرد إشارة مقتضبة إلى ما عاناه المسيحيون من زعامات كنائسهم، حيث انقسمت الكنيسة على نفسها، وتعـــددت المـــذاهب المســـيحية، مـــن كاثوليـــك، وأرثـــوذكس، وبروتستانت..

وكان زعماء كل كنيسة ومذهب يعبئون أتباعهم ضد الكنيسة الأخرى وأتباع المذهب

---

(١) بيانات الفاتيكان: موقع الفاتيكان على الأنترنت.

(٢) المصدر السابق.

الآخر.. فحين اعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانية بداية القرن الرابع الميلادي وانحاز لآراء بولس، الذي كان يهوديّاً متعصباً ضد النصارى ومشاركاً في اضطهادهم، لكنه انقلب فجأة إلى المسيحية مدّعياً أنه تلقى الوحي، وأصبح داعية للمسيحية يعرف باسم (بولس الرسول) مؤسس المسيحية الجديدة، القائمة على تأليه المسيح والتثليث، فقد قمعت الآراء المخالفة وسط المسيحيين.

فحينما عارض (آريوس ٣٣٦م) القول بألوهية المسيح، انعقد المجمع الكنسي الأول الذي عرف بمجمع نيقية عام ٣٢٥م، وقرر إدانة (آريوس) وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وخلع أنصاره من وظائفهم، ونفيهم، والحكم بإعدام كل من أخفى شيئاً من كتاباته.

ولما ظهر مذهب (البروتستانت) في المسيحية، معترضاً على الآراء السائدة لدى الكنيسة الكاثوليكية، ومعنى كلمة (البروتستانت) في اللاتينية: المحتج، فقد اتجهت لهم الكنيسة بالاضطهاد العنيف، وكثرت المذابح، ومن أهمها مذبحة باريس في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م، التي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت، الذين دعو لباريس للتقريب بين وجهات النظر، ثم قتلوا خيانة وهم نيام، وجرت دماؤهم في شوارع باريس، وانهالت التهاني على (تشارلس التاسع) من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنيء!! والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم مثلوا نفس دور القسوة مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية في معاملة خصومهم.

والكنيسة الكاثوليكية تمثل الأكثرية المسيحية، وهي تتحمل بشكل أساس مسؤولية اضطهاد الأقليات المذهبية المسيحية الأخرى، وقمع الرأي المخالف لتفسيرها للدين.

الإرهاب الفكري:

تبنت الكنيسة في العصور الوسطى آراء أرسطو وبطليموس اليونانية في الطبيعة والفلك، وأطلقت عليها الجغرافيا المسيحية، وعملت على فرضها على الناس باعتبارها معتقدات دينية،

وأن ما يخالفها كفر ومروق عن الدين، وأنشأت محاكم التفتيش عام ١١٨٣م، لمساءلة الناس عن آرائهم في أمور الطبيعة والكون، ومعاقبة المخالف منهم، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ٣٠٠.٠٠٠ شخصاً أحرق منهم ٣٢.٠٠٠ أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، الذي حكم عليه بالقتل وأن لا تراق قطرة من دمه على الأرض، فأحرق حيّاً سنة ١٦٠٠م، وكذلك حكم بالقتل على العالم الفلكي الإيطالي غاليلو غاليلي سنة ١٦٤٢م لأنه قال بحركة الأرض ودورانها حول الشمس.

الاضطهاد والاستعمار:

أشارت مذكرة الاعتذار إلى بعض المآسي التي أصابت العديد من الشعوب والمجتمعات المستضعفة، من القوى الأوربية والغربية، التي كانت تمارس طيغانها وسيطرتها الاستعمارية تحت نظر الكنيسة ورعايتها ومباركتها.

فالهنود الحمر وهم السكان الأصليون للأمريكتين والذين نزحوا إليها من آسيا، قبل أكثر من ٢٠.٠٠٠ عام حسب تقديرات العلماء، لكن الأوربيين البيض حينما اكتشفوا أمريكا وثرواتها، جاؤوا لاستيطانها، وخاضوا مع الهنود الحمر حروباً طويلة وعنيفة، انتهت عام ١٩٠٠م بإبادتهم واغتصاب أراضيهم وتشريدهم، واضطهاد من بقي منهم، فقد كان عدد الهنود الحمر في أمريكا أكثر من مليون نسمة، وفي نهاية حروب الإبادة تقلص عددهم إلى ٢٣٧.٠٠٠ ألفاً!!

والأفارقة السود كانت تغزوهم سفن الأوربيين العسكرية والتجارية، وتصطادهم كالحيوانات دون رحمة أو شفقة، تنتزع الولد من حضن أبيه، والبنت من حجر أمها، وتختطف الأخ من بين إخوته، وتصدرهم كرقيق إلى أوربا، يباعون ويشترون، يزرعون ويعملون في خدمة الأوربي الأبيض بإهانة وإذلال، وبحلول القرن التاسع عشر كان الأوربيون قد جلبوا إلى الأمريكتين نحو عشرة ملايين رقيق من أفريقيا!!

كما تفرجت الكنيسة على اضطهاد اليهود وإبادهم على أيدي النــازيين، واســتجابة للضغط اليهودي العالمي فقد جاء الحديث عن قضيتهم في مذكرة الاعتذار أوضح مــن أي قضية أخرى.

أما معاناة الشعوب الإسلامية من الطغيان الأوربي خلال الحروب الصــليبية بمباركــة الكنيسة، فلم يأتِ الحديث عنها واضحاً، رغم أنها كانت معاناة قاسية طويلة حيث نظــم الغزاة الأوربيون ثماني حملات عسكرية رئيسية، استمرت لأكثر من ٢٠٠ســنة مــن عــام ١٠٩٦م إلى ١٢٧٠م، للاستيلاء على فلسطين وما حولها من البلاد الإسلامية، وقد طلــب الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس كومنينوس) عام ١٠٩٥م المساعدة من البابا أوربان الثــاني بابا الكنيسة الكاثوليكية في قتاله ضد الأتراك، ووافق البابا على ذلك، وعقد البابا في خريف ١٠٩٥م مجلساً لقادة الكنيسة في (كليرمونت) الفرنسية، حث فيه الأوربيين على وقف القتال فيما بينهم، والاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين، ووعدهم بمكافآت روحية ومادية مقابل أعمالهم، وأثارت الرغبة في القتال أوربا الغربية، وانضم الآلاف إلى جيوش الغزاة!!

وما حصل من استعمار الدول الغربية لأكثر البلدان الإسلامية في أعقاب سقوط الخلافة العثمانية، وما تخلل ذلك من اضطهاد وجور لم يكن خافياً على الكنيسة ولا بعيــداً عــن مباركتها.

وقيام الكيان الصهيوني الغاصب في قلب المنطقة العربية والإسلامية، وحمايتــه ودعمــه للاستمرار في وجوده وعدوانه، ليس إلا مظهراً من مظاهر التآمر والحقد الغربي على الإسلام والمسلمين..

الدرس والعبرة:

لقد علمنا القرآن الكريم أن الحديث عن مظالم ومفاسد الأمم الأخرى، يجب أن يكون مبعثاً للتفكير والاعتبار، ولاستفادة الدروس والتجارب من التحولات التي حصلت لســائر

الأمم، حتى نتلافى ما وقعوا فيه من أخطاء.

لذا تحدث القرآن كثيراً عن أهل الكتاب، لاشتراكهم مع المسلمين في الانتماء لرسالة سماوية، والإيمان بنبي مبعوث من قبل اللّه تعالى، فقد جاء الحديث عن اليهود في أكثر من ٣٢ آية في القرآن، كما جاء الحديث عن أهل الكتاب بهذه السمة حوالي ١٨ مرة وعن النصارى حوالي ١٥ مرة. ليحذر القرآن المسلمين مما فعل اليهود والنصارى بدينهم، إذ حرفوه وتلاعبوا به وأساؤوا استخدام عنوانه وشعاراته.

وحينما يعترف زعيم الكنيسة المسيحية بأخطاء الماضي بشيء من الإجمال والاقتضاب، ويطلب الصفح والمغفرة عن ذلك التاريخ المظلم، فإن ذلك يجب أن يحفّز كل مؤسساتنا وجهاتنا الدينية للحذر والوعي واليقظة، حتى لا تصاب سمعة الإسلام من خلال تصرفاتها وممارساتها.

فالظلم مدعاة لغضب الرّب وسخط الناس، بأيِّ شكل حصل، ومن أيِّ جهة صدر، والإسلام دين العدالة والحق، فيجب أن تكون صفحته بيضاء مشرقة ناصعة.

عن اللقاء الوطني للحوار الفكري

حينما تتنوع فئات المجتمع وشرائحه، كما هي طبيعة كل مجتمع بشري، فإن التلاقي والتواصل بين هذه الفئات المتنوعة عرقيّاً أو فكريّاً أو سياسيّاً، هو الحرف الأول من أبجدية تعايشها، وحفظ كيانها الاجتماعي.

فالتواصل يحقق أُلفة النفوس، ويربط وشائج العواطف، ويصنع لغة العلاقة الإنسانية، المنبثقة من حالة فطرية تجذب الإنسان إلى أخيه الإنسان.

هذه الألفة والعلاقة العاطفية التي ينتجها التواصل تعطّل أيّ مفعول سلبي لجهة الاختلاف والتنوع، وتبقيه ضمن حدوده الطبيعية المقبولة.

أما إذا انعدم التواصل بين فئة وأخرى، وحتى بين شخص وآخر، فإن الجفاء النفسي، والجفاف العاطفي، يصبح أرضية لنمو بذور التنافر والكراهية. لذلك اعتبر الحديث النبوي الشريف أن الألفة مع الآخرين مقياس لخيرية الإنسان، روي عنه ﷺ أنه قال: «خياركم أحسنكم أخلاقاً الذين يألفون ويؤلفون».

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل التحبب إلى الناس» (المتقي الهندي: كنز العمال، حديث رقم ٥١٧٢).

والتلاقي بين الأطراف المختلفة، يوفّر فرصة الانفتاح الفكري بينها، حيث يتعرف كل طرف حقيقة وواقع الطرف الآخر، ويتحاور معه، ويتبادلان الرأي، فيكتشفان

مساحات الاتفاق، ويجددان مناطق الاختلاف، مما يهيئ الأجواء المناسبة للوصول إلى صيغة تفاهم وتعامل، من أجل خدمة المصالح المشتركة، وإقرار السلم الاجتماعي.

وعلى العكس، من ذلك حينما تسود حالة القطيعة والتباعد بين الأطراف المختلفة، فتكون صورة كل طرف غير واضحة ودقيقة أمام الطرف الآخر، تشوّهها ظنون السوء، وخطأ المعلومات الواردة، والنقولات المغرضة، ويجد أعداء المجتمع فرصتهم لتعبئة كل جهة ضد الأخرى، والتأسيس لمشاريع الفتنة والنزاع والاحتراب.

إن مخططات الأعداء لتمزيق الأمة وتفريقها لا تأتي من فراغ، ولا تبدأ من الصفر، وإنما تبحث عن الثغرات والمنافذ، وتعمل على توسيع رقعتها، وتفعيل آثارها، لإشعال نار الفتنة والانقسام. وتواصل فئات المجتمع وتلاقيها يجعل مهمة الأعداء في التفرقة صعبة عسيرة، بينما تكون سهلة ميسرة في حال القطيعة والتباعد.

وليس مصدر الفتنة والنزاع خارجيّاً دائماً، بل قد يكون باعثها قوى داخلية جاهلة أو مغرضة، تتيح فرصة الاستثمار الأجنبي. حيث تنمو داخل هذا الطرف وذاك، قوى تبحث عن دور ونفوذ، من خلال المزايدة، وإظهار البطولة، في الدفاع عن عقيدة الجماعة وهويتها، بإثبات الأفضلية والتفوق على الآخر، بالغلو في تمجيد الذات، والإمعان في النيل من الآخر وتحقيره.

وإنما تنتعش هذه القوى المتطرفة في حال القطيعة والتباعد، بينما يتعذر عليها العمل والنجاح حين تتواصل الأطراف، وتتلاقى الجهات، وتتداخل المصالح.

ولنضرب مثلاً بالعلاقة بين الطوائف الإسلامية في لبنان، حاضراً، فلو أن جهة من الشيعة أظهرت إساءة لأهل السنة، فإن المؤسسات والشخصيات الشيعية كالمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وحزب الله، بل والجمهور الشيعي سيقف أمامها، ويرفض ويمنع

تصرفها المسيء، وكذلك الأمر لو حاولت جهة سنية النيل من الشيعة، فإن دار الإفتاء وجمعية المقاصد الإسلامية وغيرها، وعموم الرأي العام السني، ستردعها وتوقفها عند حدها. لماذا؟!.

لأن هناك خطوط اتصال، ووشائج ارتباط، وتشابك مصالح. أما في ظل القطيعة والتباعد فإن القوى المتطرفة لدى الجهات المختلفة تسرح وتمرح، وتجد لها المبررات الكافية، والأجواء المشجعة، ويصبح الواعون المدركون في حرج من معارضتها ومخالفتها، حتى لا يوصموا بالجبن والخذلان وممالأة الأعداء.

إن اللقاء والحوار من أهم عوامل وقاية جسم المجتمع من جراثيم الفرقة والنزاع، بتفعيل وتنشيط جهاز المناعة الذاتية. ومن أقوى وسائل حماية الوحدة والاستقرار الاجتماعي.

اللقاء الوطني

وإذا كان اللقاء والتواصل بين أطراف المجتمع مهمّاً وضروريّاً في كل وقت فإنه حين تشتد الأخطار، وتزداد التحديات، يصبح أكثر ضرورة وإلحاحاً.

من هنا تأتي أهمية المبادرة الرائعة التي أطلقها سمو ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز وفقه الله لخير البلاد والعباد، بالدعوة إلى انعقاد اللقاء الوطني للحوار الفكري.

وحصل اللقاء برعايته الكريمة في الرياض عاصمة المملكة، لمدة أربعة أيام، من تاريخ (١٥-١٨/٤/١٤٢٤هـ) الموافق (١٥-١٨/٦/٢٠٠٣م).

وضم اللقاء نخبة من العلماء والمفكرين، والمهتمين بالشأن العام، يزيدون على ثلاثين شخصية، من مختلف مناطق المملكة، يمثلون مختلف التوجهات المذهبية والفكرية الإسلامية، من السنة والشيعة.

من السلفيين بتوجهاتهم المختلفة، ومن أتباع المذهب المالكي والشافعي، ومن الشيعة الإمامية في القطيف والأحساء والمدينة المنورة، ومن الإسماعيلية في نجران، ومن الشخصيات الإسلامية الوطنية المستقلة.

لقد شهدت مكتبة الملك عبد العزيز العامة، التي احتضنت جلسات اللقاء، أول اجتماع من نوعه في تاريخ المملكة الحديث، الذي نأمل أن يكون إيذاناً بطيّ حقبة من التباعد والقطيعة، بين أبناء الوطن الواحد والدين الواحد، وتدشيناً لعهد جديد من التواصل والتعاون، على البر والتقوى، لخدمة الدين والوطن إن شاء الله.

التنوع المذهبي.. حقيقة قائمة

نشأت المذاهب والمدارس العقدية والفقهية ليس أمراً جديداً في حياة الأمة، ولا حالة طارئة مستحدثة، بل هو واقع معيش منذ العهد الإسلامي الأول، ومن البساطة المتناهية، والتفكير العبثي، التنكر لهذه الحقيقة وتجاهلها، والنظر إلى تعدد المذاهب وكأنه حالة مرضية، لا بد من رفضها واستئصالها، ولا يصح الاعتراف بها والتعامل معها.

إن لكل مذهب تاريخه العريق، ومنظومته المعرفية، التي تكرّس القناعة به عند أتباعه، وقد يمكن تغيير قناعة بعض الأفراد ليتحولوا من مذهبهم إلى مذهب آخر، لكن التيار العام والكيان الاجتماعي، لأي مذهب لن يتأثر بخروج عدد من الأفراد.

كما أن وجود أتباع لهذه المذاهب في المملكة العربية السعودية، ليس أمراً طارئاً، ولا وجوداً دخيلاً، فهم أهل هذه البلاد، وأبناؤها، وأصحاب أرضها، منذ القدم، وقبل قيام الكيان السياسي، الذي تحقق على يديه توحيد هذه المناطق، وإنشاء دولة واحدة عزيزة، هي المملكة العربية السعودية.

إنهم أجزاء مكوّنة لهذا الوطن الغالي، وليسوا وافدين دخلاء، وبالتالي فهم يتساوون في حقوق المواطنة وامتيازاتها، وفي التمتع بخيرات الوطن وإمكاناته المادية والمعنوية.

فالوطن ليس ملكاً لأتباع مذهب معين، والدولة ليست خاصة بأصحاب اتجاه واحد، بل هو وطن الجميع، ودولة الجميع.

وكان أبناء البلاد يتعايشون في مناطقها بودّ وانسجام، مع اختلاف انتماءاتهم المذهبية، يتحدث عضو هيئة كبار العلماء في المملكة الدكتور الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان، في كتاب له عن تاريخ العلم والثقافة في مكة المكرمة، في القرن الرابع عشر، بعنوان (الحرم الشريف الجامع والجامعة) منشورات نادي مكة الأدبي والثقافي سنة ١٤١٧هـ، يتحدث عن تقاسم الأدوار العلمية والدينية بين علماء المذاهب الأربعة، في فناء البيت الحرام، حيث لم يكن هناك احتكار وانحصار في علماء مذهب واحد.

يقول: «جرت العادة أن يقام لصلاة الجماعة الأولى يؤم فيها إمام الشافعية، تتلوها صلاة الجماعة الثانية يؤم فيها إمام الحنفية، يعقبها المالكي ثم الحنبلي، فمن فاتته الجماعة مع الأولى أدركها مع الثانية، ومن لم يدرك الثانية أدركها مع الجماعة الثالثة، ومن لم يدركها مع الثالثة أدركها مع الجماعة الرابعة وبهذا لا تفوت المأموم الصلاة جماعة في أغلب الأحيان، أما صلاة الجمعة فالحال فيها على عكس الصلوات الخمس، فجماعتها جماعة واحدة، بإمام وخطيب واحد، ولكن لكل مذهب خطباؤه، يأخذون دورهم مع بقية أئمة وخطباء المذاهب الأخرى، على مدار العام، كانوا من الكثرة بحيث قد لا يتسنى للواحد الإمامة وخطبة الجمعة أكثر من مرة في العام الواحد.

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٥هـ اجتمع فريق من العلماء الحجازيين والنجديين واتفقوا على توحيد صلاة الجماعة في الحرم الشريف، ولكن مع التناوب بين أئمة المذاهب

المختلفة، وانتخب من كل مذهب ثلاثة أئمة، الشافعي والمالكي والحنفي، ومن المذهب الحنبلي اثنان» (أبو سليمان، الدكتور عبد الوهاب: الحرم الشريف الجامع والجامعة ص٣٤،٣٧ / نادي مكة الأدبي والثقافي ١٤١٧هـ).

ويتحدث الشيخ أبو سليمان أيضاً عن تعدد المفتين والمدرسين في الحرم حسب المذاهب.. مما يلبي حاجات الناس، ويشعر كل الأطراف بوجودها واحترامها ومشاركتها، ويثري المعرفة، ويحفظ المودة والانسجام.

وفي المنطقة الشرقية حيث يتعايش شيعة أهل البيت مع إخوانهم السنة، كانت علاقات التواصل والتعاون بينهم وطيدة، ففي القطيف كان قاضي الشيعة مرجعاً في القضاء للسنة والشيعة، وهو الشيخ علي - أبو عبد الكريم- بن حسن الخنيزي (١٢٨٥-١٣٦٢هـ) الذي تولى القضاء سنة ١٣٢٣هـ في عهد العثمانيين، واستمر فيه إلى العهد السعودي حيث أقره جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود ومما شاع ذكره في المنطقة بين السنة والشيعة من أهاليها، وأثبته مترجمو الشيخ الخنيزي: أن رجلاً من أبناء السنة من البدو رفع دعوى على والد الشيخ الخنيزي، فطلب الشيخ من أبيه أن يتساوى مع خصمه في المجلس، كما هي آداب القضاء في الإسلام، ولما تبين له أن الحق في جانب البدوي السني، لم يتردد في الحكم على أبيه، وإلزامه تسليم الحق لصاحبه، مما أوجد له احتراماً كبيراً في جميع الأوساط.

وكان هناك تواصل علمي معرفي بين علماء السنة والشيعة في المنطقة، وخاصة في الأحساء، وتواصل اجتماعي بين عامة الناس من الطرفين، فالمواطنون السنة في قرية (عنك) في القطيف، كانوا يودعون أماناتهم وأموالهم عند شخصيات الشيعة في القطيف، عند ترحلهم في البادية، وكذلك كان السنة من أهالي (دارين) يرتبطون بأوثق العلاقات

مع جيرانهم الشيعة في (تاروت)، ولا زال الآباء ينقلون لنا عن صور ذلك الترابط والتلاحم.

وقد حدثني أكثر من أديب ومثقف من الأخوة السنة في الأحساء أنه تعلم القرآن عند معلم أو معلمة من الشيعة.

هكذا كانت حالة التواصل والانسجام الاجتماعي غير متأثرة بالتنوع المذهبي.

ويكفي أن نقرأ في ترجمة الأديب خالد بن محمد الفرج (١٣١٦هـ - ١٣٧٤هـ) من عشيرة المناديل الدوسرية الذي عينه الملك عبد العزيز مديراً لبلدية القطيف سنة ١٣٤٦هـ وكيف كانت علاقاته وتواصله مع علماء الشيعة وأدبائهم ومثقفيهم في القطيف، ومشاركته لهم في مناسباتهم الاجتماعية، لندرك مدى عمق الانسجام الاجتماعي فوق المذهبي آنذاك.

اقرأه - خالد الفرج - وهو يرثي قاضي الشيعة في القطيف الشيخ علي - أبو الحسن - الخنيزي (١٢٩١-١٣٦٣هـ) ويلقي قصيدته في حفل الأربعين التي يقول فيها:

ابكـوا بـدمع أو نجيـع شيخاً يعزّ علـى الجميـع
وتصوروا البـدر اختفـى في غـامض الليـل المريـع
وكأنـه روح الحيـاة مضت عن الجسم الصـريع

إلى أن يقول:

يبكون شمس الفضل غابـت لـن تعـود إلى طلـوع
يبكون نهـر العلـم جـفّ فمـن لمصـفّر الـزروع
يبكون روحاً لـن ترفـرف في سـجود أو ركـوع

أودى أبـــو حســـن فمـــن كعلـــيّ العلـــم الرفيـــع

ويختمها بقوله:

قد صار قبرك في القطيـــف كأنـــه بعـــض البقيـــع

وفي مناسبة أخرى، هي وفاة عالم آخر من كبار علماء القطيف، هو السيد ماجد السيد هاشم العوامي (١٢٧٩-١٣٦٧هـــ) تتفجر قريحة الأديب الفرج عن قصيدتين رائعتين، ألقى الأولى في أيام العزاء، والثانية في حفل الأربعين وفيها يقول:

إكليل شعر على قبر من النـــور في القلب لا في أديم الأرض محفور

مضمّخ بعبير الـــذكريات لـــه نشر يضوع بلا مســـك وكـــافور

يضم جثمان فضل لا حدود له باقٍ على صفحات القلب مسطور

وفيها يقول مشيراً إلى وفاة السيد ماجد بعد أدائه الحج وسفره للعراق لزيارة مراقد أئمة أهل البيت، حتى توفي في الكاظمية هناك:

قدست يا من أتم الواجبـــات علـــى خـــير الوجـــوه بتوفيـــق وتيســـير

فزرت أجدادك الأبرار بعـــد قضـــا حج الوداع على هـــدي وتقصـــير

واخترت مثواك في أرضٍ زكت تربا في الكاظمية بـــين الولـــد والحـــور

ولأن أربعين السيد ماجد كانت في شهر جمادى، فإن الشاعر الفرج يستحضر أربعين الإمام الحسين التي يحتفل بها الشيعة في العشرين من شهر صفر فيقول:

الأربعون وهل في الأربعين سوى معنى تعاقب إشـــراق وتغـــوير

أفي جمادى مقام اليوم أم صـــفرٍ ما الفرق إلا بتقـــديم وتـــأخير

رزء الحفيد كرزء الجد لو سلمتْ تلك الشهادة من ظلم وتحســـير

وفي المقطع الختامي من القصيدة يقول:

يا آل هاشم ماذا الدمع إنكـــمُ	مطهرون متى احتجتم لـــتطهير
وهل مصائبكم لا تنقضي أبداً	وما سواهنّ يصفو بعد تكـــدير
لا تخلعون سواداً من ثيـــابكمُ	إلا على كفن في القبر مـــزرور
ولا يهلّ هلال لا تقـــوم بـــه	مــــآتم للغرانيـــــق المغـــــاوير
أهل القطيف لقد قمتم بواجبكم	وكلكم بين مـــبرور ومـــأجور

أنت هنا أمام شاعر سني، يعيش كل أحاسيس المجتمع الشيعي، ويجيد التعبير عنها، بلغة تنطلق من أعماق نفسه بصدق وإخلاص.

هذه عينات ونماذج، عن التواصل والانسجام، بين المواطنين المتنوعين في مذاهبهم وانتماءاتهم. وكان يفترض أن تتطور هذه الحالة لتعميق الترابط والوحدة الوطنية، في ظل ثبات النظام الذي صنع وحدة البلاد.

الأحادية والقطيعة

لكن حقبة صعبة مرّت على الوطن، تراجع خلالها مستوى التواصل والانسجام بين أطراف المجتمع المتعدد المذاهب والتوجهات، حيث استأثر بالساحة الدينية والفكرية رأي أحادي، يرفض الاعتراف بالآخر، ويضيّق عليه الخناق، ويحرمه من فرصة التعبير عن وجهة نظره، حتى أصبح اعتناق الرأي الآخر كأنه مروق من الدين، وخلل في الولاء للوطن، ومخالفة للنظام.

فانكفأ أتباع المذاهب الأخرى على أنفسهم، وانطوت كل جهة منهم ضمن دائرتها الخاصة، لتهتم بتحصين أتباعها ضد تأثيرات الاتجاه السائد، الذي يحتكر كل الوسائل

والإمكانات العامة.

وسادت حالة الجفاء والجفاف، والقطيعة والتباعد، وبدأت تظهر آثارها الخطيرة، ونتائجها المرة، في إضعاف الوحدة الوطنية، والنيل من تماسك المجتمع وانسجامه، وبروز التوجهات المتشددة المتطرفة، وكان الأعداء الأجانب يرصدون هذه الحالة، ويذخرون استثمارها للوقت المناسب، خدمة لأغراضهم التآمرية ضد مصلحة الأمة والوطن.

فكان لا بد من يقظة وانتباه، ووقفة مراجعة وتأمل، لتفويت الفرصة على الأعداء، بتصليب الوحدة الوطنية، وتجديد حيويتها، ونفض غبار الغلو والتشدد عن مفاهيم الدين وتعاليمه، وهو دين الوسطية والاعتدال، والشريعة السمحاء. كما يقول تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[1].

ويبدو أن هذا هو الهدف الأساس، لانعقاد اللقاء الوطني للحوار الفكري، حسبما أكدّه سمو ولي العهد في كلمة الافتتاح التي وجهها إلى المشاركين، وجاء فيها:

«أيها الأخوة الأفاضل: لا يخفى عليكم، وقد اجتمعتم في هذا اليوم المبارك، لهدف نبيل، وغاية شريفة، ما يحدق ببلادنا من أخطار، وما تمر به من ظروف دقيقة حرجة، وما تعانيه من ضغوط، وما تواجهه من هجمات شرسة، تمسُّ العقيدة، وتهدد الوحدة الوطنية، وتعرضها للاختراق من قبل الأعداء، الأمر الذي يوجب على كل مخلص من أبنائها، أن يبذل أقصى الجهد والاجتهاد، للتصدي لمحاولات النيل من وحدتها، والمساس بأمنها واستقرارها، وتهديد مصالحها، وأن يتنبه كل ذي لب لعوامل التنافر والشقاق، وظهور العداوات، سواء من العصبيات القبلية، أو النعرات الإقليمية، أو الاختلافات الفكرية، أو أي شكل من أشكال الغلو والتطرف.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤٣.

أيها الأخوة: ما من عاقل عارف بالأمور، ينكر أن اختلاف الآراء، وتنوع الاتجاهات، وتعدد المذاهب، أمر واقعي في حياتنا، وطبيعة من طبائع الناس، الذين خلقهم الله بعلمه وحكمته، على فوارق في الفهم والإدراك والفكر، وتعدد في مشارب العلم والمعرفة، واختلاف في بيئات النشأة والتربية»[1].

هل نجح اللقاء؟

كان القلق يساور الكثيرين حول حظوظ اللقاء في النجاح، فالاتجاهات المشاركة فيه تفصل بين أغلبها مسافات من التباعد والقطيعة، وحواجز من الانطباعات السلبية المتبادلة، وركام من الظنون السيئة، والاتهامات القاسية، كالكفر والشرك والابتداع والضلال والانحراف..

لكن هذا القلق تبدّد منذ الجلسة الأولى بحمد الله، وظهر أن معظم المشاركين، كانوا على مستوى من النضج والوعي بالتحديات الخطيرة المحدقة بالدين والوطن، وكانوا يتحلون باللياقة الكافية، لإدارة الحوار الصعب في مستهله وبدايته.

كانت هناك نبرات حادّة من قبل البعض، فيما يرتبط بالخلاف المذهبي، بين السنة والشيعة وفيما يتعلق ببعض المواقف السياسية بين أجنحة التيار السلفي، لكنه أمكن استيعابها، والتعامل معها كدرجة عالية من الصراحة والمكاشفة.

لقد تبلورت الآراء في أوساط الملتقين، وتمخض الحوار، عن ضرورة الاعتراف والإقرار بالتعدد المذهبي والفكري، وأنه سنة كونية، وحقيقة تاريخية، لا يمكن إلغاؤه وتجاوزه. وأنه لا بديل عن التعايش بين أتباع هذه المذاهب والتوجهات، وحفظ السلم

(١) راجع: اللقاء الوطني الأول للحوار الفكري، إصدار مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني.

الاجتماعي، والوحدة الوطنية، والتساوي في حقوق المواطنة.

وجرى التأكيد على اعتماد منهج الحوار، في قضايا الاختلاف، ضمن الآداب الإسلامية والعلمية، التي تلزم بتحري الحقيقة والموضوعية، والعدل في الحكم على الآراء والأشخاص.

وبهذه الروحية المنفتحة، انطلق المتحاورون في بحث القضايا المقترحة، للنقاش من هموم الوطن والمواطنين، في عشر جلسات، استغرقت حوالي خمس وعشرين ساعة.

حيث جرى البحث والنقاش حول قضايا أساس، تحتاج إلى بلورة رأي، وتجلية موقف للنخبة الوطنية تجاهها، لمساعدة القيادة السياسية في البلاد، على الإسراع في مسيرة الإصلاح والتطوير، ومواجهة التحديات الصعبة، بتوسيع رقعة المشاركة السياسية، وتحقيق التطلعات المشروعة، وأن يتحمل المواطنون جميعاً، وخاصة النخبة الواعية، مسؤولياتهم في الدفاع عن الوطن وحماية وحدته وأمنه واستقراره.

ومن مكاسب اللقاء المهمّة استحضار جميع هموم الوطن وتطلعات المواطنين، في مناطقهم المختلفة، وشرائحهم وتوجهاتهم المتنوعة، فربما كان البعض منا يعيش همَّ قضايا معينة مثارة في منطقته ومجتمعه، وقد يرى لها الأولوية والصدارة، لكنه حين يعيش أجواء هموم سائر المناطق والقضايا، ويطلع على أبعادها وتفاعلاتها، يعيد رسم خريطة الأولويات في تفكيره، ويتفاعل مع كل قضية في حجمها الطبيعي، دون تهويل وتضخيم.

لقد تناول المتحاورون أموراً حساسة لها علاقة بالشأن السياسي والأمني والاقتصادي والاجتماعي والدعوي، بشفافية وصراحة، من منطلق التشخيص الموضوعي للمشكلة، وتلّمس أفضل سبل الحل والعلاج، ولم يكن هناك سقف ولا خطوط حمر أمام المتحاورين، إلا شعورهم بالمسؤولية تجاه ربهم وأمتهم، كما لم تتدخل رئاسة اللقاء في

قضايا الحوار بتأييد رأي أو معارضة آخر، بل اقتصر دورها على تنظيم الحوار وإدارته.

كان اللقاء فرصة رائعة للتعارف بين الأطراف المشاركة، وتصحيح بعض الانطباعات، والتأكد من المواقف والتوجهات، استمعوا لبعضهم، وتناقشوا وتحاوروا، ووجدوا أن ما يتفقون عليه أهم وأوسع مساحة مما يختلفون فيه.

وتبلورت لدى الجميع الرغبة والإرادة في استمرار اللقاء والتواصل، وطلبوا من سمو ولي العهد تبني تحويل اللقاء إلى مؤسسة وطنية ترعى الحوار الوطني، وتؤسس له، وتحتضن اجتماعاته وبرامجه، وتدرب عليه، وتعالج أي خروج عن ثوابته وضوابطه. كما عبر عن ذلك الشيخ سلمان العودة في كلمته أمام ولي العهد مضيفاً: إنه لا فائدة ولا مصلحة من بخس أحد حقه أيّاً كان توجهه أو مذهبه أو دينه، شريطة أن يحترم دين هذه البلاد ومصالحها وأمنها.

وإلى جانب الجلسات الرسمية للقاء، كانت هناك لقاءات ثنائية وجانبية، حيث يتزاور الملتقون في غرفهم في قصر الضيافة للمؤتمرات، ويتحادثون أوقات الوجبات على موائد الطعام، وأثناء انتقالهم بالسيارات إلى مكتبة الملك عبد العزيز حيث تعقد جلسات اللقاء، فكانت أياماً طيبة مباركة إن شاء الله.

ولعل جميع الملتقين قد فوجئوا بنجاحهم في هذا اللقاء الأول، كما عبر عن ذلك أكثرهم. فالدكتور الشيخ محمد عبده يماني قال أمام سمو ولي العهد: إني لم أكن راغباً في حضور هذا اللقاء إذ كيف نتلاقى ونتحاور والبعض منا ما كان يسلّم على الآخر، لكني سررت وسعدت بما وجدته في اللقاء من لغة المصارحة، ومنهجية الحوار، وأجواء الودّ والاحترام.

وتجب الإشادة هنا بإدارة اللقاء، المتمثلة في معالي الشيخ صالح بن عبد الرحمن

الحصين، الرئيس العام لشؤون الحرمين الشريفين، الذي كان حكيماً هادئاً واسع الصدر، وكذلك مساعداه، الدكتور راشد الراجح الشريف والدكتور عبد الله بن عمر نصيف، كما بذل أمين عام اللقاء مدير مكتبة الملك عبد العزيز، الأستاذ فيصل بن عبد الرحمن بن معمر كل جهد ممكن لإنجاح اللقاء، جزى الله الجميع خيراً.

ما بعد اللقاء

من الإنصاف أن نعتبر هذا اللقاء المبارك نقطة تحوّل في التاريخ الاجتماعي لوطننا الحبيب، بما يعنيه من إقرار بالتعددية المذهبية، والتنوع الفكري، واعتماد منهج الحوار واحترام الرأي الآخر، والتأكيد على الوحدة الوطنية.

بالطبع لنا أن نتوقع محاولات لإجهاض مسيرة اللقاء، بإثارة زوبعة هنا وأخرى هناك، وتضخيم كلمة صدرت من هذا الطرف أو ذاك، وإعادة فتح الملفات الطائفية القديمة في العلاقة بين السنة والشيعة، وطرح التساؤلات والإشكالات، حول مدى شرعية التلاقي والحوار مع الآخر، المحكوم عليه سلفاً بأقسى الأحكام!!.

ومن يتصفح بعض المواقع على شبكة الإنترنت يجد بدايات هجوم مضاد على نهج اللقاء ونتائجه، وكل ذلك أمر متوقع لأن وراءنا تاريخاً من القطيعة والتراع، وتراثاً مثقلاً بالآراء والمواقف السلبية المتبادلة، وهناك جيل تربى على التقرب إلى الله تعالى بمناوأة الآخر والإساءة إليه، ومراكز قوى تستمد نفوذها وشرعية وجودها، من هذه المعارك المذهبية المفتعلة.

لكن المطلوب من الواعين المخلصين لمصلحة الدين والوطن، من مختلف المذاهب والتوجهات، أن يتحملوا مسؤوليتهم، تجاه هذا المنعطف الخطير، والمنحنى المهم، وأن لا يسمحوا بالعودة إلى الوراء، للتراجع عمّا تحقق من تقدم في المسار الصحيح، وما أنجزه

اللقاء من مكاسب عظيمة، وذلك عبر ما يلي:

أولاً: تكريس نهج اللقاء والحوار على المستوى الشعبي، بنشر ثقافة الوحدة، وروح التسامح، واحترام حقوق الإنسان، وحرية الرأي والتعبير، هذه المفاهيم التي أقرها الإسلام قبل أن يتحدث عنها الغرب بقرون.

فوحدة الأمة أصل أساس من أصول الفكر الإسلامي، إلى جانب توحيد الله تعالى. يقول تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[١].

وكما قال أحد علماء الإسلام: بني الإسلام على شيئين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وحفظ حقوق المخالف، والتعامل معه، مبدأ أصيل في منهج الإسلام، لا يجوز الخروج عليه. يقول تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}[٢]، {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[٣]، {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}[٤]، {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }[٥].

إن مجتمعنا بحاجة إلى حملة إعلامية ثقافية، بدءاً من مدارس التعليم والجامعات، إلى الصحافة ووسائل الإعلام، إلى خطب المساجد والتوجيه الديني، لمواجهة آثار حقبة التطرف والتشدد، التي لن تزول بين عشية وضحاها.

وما يجب أن نحذر منه في هذه المرحلة، هو الاستجابة لإثارات الخلافات المذهبية، والاستدراج إلى متاهات الجدل العقيم، والمهاترات الطائفية. فذلك ما قد يخطط له البعض،

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٩٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٨٣.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٤) سورة الأعراف: آية ٨٥.

(٥) سورة المائدة: آية ٨.

للانقضاض على مسيرة اللقاء والحوار.

ثانياً: مأسسة اللقاء والحوار، بإنشاء مركز وطني للحوار، ووضع الآليات والبرامج المناسبة لاستمراره وتطويره، وتوسيع رقعة المشاركة فيه، ليشمل كل الاتجاهات والتوجهات فإقصاء أي طرف وتغييبه يعتبر ثغرة في كيان الوحدة الوطنية، وخللاً في مسيرة اللقاء والحوار.

وقد أبدى سمو ولي العهد موافقته على هذا المشروع، وأكد حرصه لدى اجتماعه بالمشاركين، ضرورة تكرار اللقاء واستمراره، بشكل منتظم.

ثالثاً: ينبغي تجاوز حالة الانكفاء والانطواء التي تعيشها بعض الطوائف كالشيعة، بالانفتاح والتفاعل على المستوى الوطني العام، فمثلاً: علماء الشيعة في المملكة غالباً ما تستهلك جهودهم واهتماماتهم في الشأن الداخلي الخاص بجماعتهم، دون توجه للاهتمام بما هو خارج هذه الدائرة، أو بناء علاقات تواصل مع الآخرين. وقد انعكست حالة الانكفاء هذه على معظم أبناء الشيعة فالمتواجدون منهم خارج مناطقهم، موظفين أو طلاباً عادة ما يكوّنون لهم تجمعاتهم الخاصة، ويقل اندماجهم وتداخلهم مع مواطنيهم الآخرين.

وإذا كانت هناك أسباب موضوعية لحالة الانكفاء في الماضي، فإن تطورات الظروف والأوضاع تدفع لتجاوزها في الحال الحاضر.

وهناك بعض الآراء والممارسات المذهبية في الوسط الشيعي، تحتاج إلى تبيين وتوضيح، حتى لا يساء فهمها عند الآخرين، وهذا لا يتم إلا بالتواصل والانفتاح، وإنتاج الخطاب المعتدل المقبول.

وإذا كان من حق الشيعة التمسك بمعتقداتهم حسب قناعتهم، وممارسة شعائرهم العبادية وفق آراء فقهائهم، فإنه يجب منع وردع أي إساءة قد تصدر من بعض الجاهلين أو المغرضين منهم تجاه الطرف الآخر، بالنيل من رموزه ومقدساته عن طريق السب أو الشتم، فذلك حرام

شرعاً، ومخالف لآداب أهل البيت وأخلاقهم.

وكما أن على الأكثرية ضمان حقوق الأقلية، فإن على الأقلية احترام مشاعر الأكثرية، وذلك هو طريق التعايش، واستقرار السلم الاجتماعي.

ثقافة الوحدة والحوار

لسنا بحاجة –هنا– لتأكيد أهمية الحوار وضرورته، فهي حقيقة واضحة لا يجادل فيها عاقل، خاصة بعد أن رأينا النتائج الوخيمة، والآثار المّرة لافتقاد الحوار.

بيد أن المطلوب توفير الأجواء الملائمة، والعوامل المساعدة، لتكريس منهجية الحوار، ولإنجاح مسيرته، وتفعيل دوره على المستوى الوطني العام. ولعل من أهم ما نحتاج إليه لتكريس منهجية الحوار، على مستوى الأمة والوطن، هو توفير الثقافة الوحدوية الجامعة، التي تهيئ النفوس، وتوجه العقول نحو الوحدة الإسلامية والوطنية، وباتجاه لغة الحوار، واحترام الرأي الآخر.

إن من الضروري بعث حركة ثقافية واسعة، تبشّر بالمفاهيم الإسلامية، والقيم الإنسانية، الداعية إلى الوحدة والحوار، وإلى الوئام والانسجام، بين بني البشر عامة، وبين أبناء الوطن بشكل خاص. وفي طليعة هذه المفاهيم والقيم، تأتي قضية حقوق الإنسان، وحرمة المسلم، وحقوق المواطنة.

حقوق الإنسان:

لقد سادت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية دعوات واتجاهات تركز على الحدود الفاصلة بين الجماعات والانتماءات المتنوعة، لتصنع من خلالها جداراً سميكاً يعزل كل جماعة عن الأخرى، ويخلق لها عالمها الخاص في الأفكار والمشاعر والمصالح، مع أنها تعيش على صعيد

وطن واحد.

ويجري هذا في عالم تهاوت فيه الحدود، وانهارت الحواجز، وانعدمت المسافات، حيث أصبح قرية واحدة حسب التعبير الشائع.

وكأن هذه الدعوات لا تعترف بكل هذا التطور الواقع، وتصرّ على طروحاتها الضيقة المنغلقة. منطلقة من فهم ديني خاطئ، لا ينسجم مع إنسانية الإسلام، وعالمية دعوته، ولا يتوافق مع ثوابت نظامه الاجتماعي، كالوحدة والعدل والإحسان.

إن التمايز بين الناس في أديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، لا يعني التنكر لوحدتهم الإنسانية، التي يقررها القرآن الكريم في آيات كثيرة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1] ، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[2].

كما يذّكر القرآن الكريم أبناء البشر بانتمائهم إلى أب واحد، هو آدم، فيخاطبهم بصفة انتسابهم إليه، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[4].

أما الآيات التي تخاطب الناس من خلال بشريتهم وإنسانيتهم بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهي كثيرة جداً.

هذه المنهجية في الخطاب القرآني ليست عفوية ولا عبثاً، وإنما هي تذكير وتأكيد حقيقة الاشتراك والمشاركة بين أبناء البشر، وإن تنوعت أعراقهم وأديانهم وتوجهاتهم، فهم من أصلٍ واحدٍ، وينتمون إلى عائلة واحدة، ويتساوون في خلقتهم، ويشتركون في الاستفادة من خيرات الكون، وثروات الطبيعة، التي جعلها الله تعالى تحت تصرف الجميع دون تمييز: يقول

(١) سورة النساء: آية ١.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٩.
(٣) سورة الأعراف: آية ٢٧.
(٤) سورة الأعراف: آية ٣٥.

تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[1]. أي للناس.

ويقول تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2].

إن الالتفات إلى هذه المنهجية القرآنية، يربي الإنسان المسلم على النظر إلى جميع أبناء البشر كأشقاء له في الإنسانية، ونظراء له في الخلق، وشركاء معه في الحياة، مما يؤسس لعلاقة إنسانية إيجابية، تتخطى التمايزات الثانوية، كاختلاف العرق أو الدين، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3].

ويوجِّه الإمام علي بن أبي طالب واليه على مصر (مالك الأشتر)، بأن يستحضر هذه الرؤية الإنسانية، في تعامله مع مواطنيه، على اختلاف أديانهم يقول: ((وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق))[4].

وفي هذا السياق تأتي أهمية نشر ثقافة حقوق الإنسان، التي هي مبادئ إسلامية أصيلة، وليست مفهوماً غربياً وافداً، كما قد تطرحه بعض الجهات، وإذا كانت هناك نقاط معينة نتحفظ عليها في وثيقة حقوق الإنسان من الناحية الشرعية، وإذا كانت بعض الدول الكبرى تستغل موضوع حقوق الإنسان، لتبرير تدخلاتها وضغوطها على الدول النامية، فإن ذلك لا يبرر تجاهل قضية حقوق الإنسان، وضعف حضورها في الخطاب الإسلامي.

بل إن بعض ألوان الخطاب الإسلامي تبدو وكأنها ترفض الاعتراف بأدنى الحقوق

---

(١) سورة الرحمن: آية١٠.

(٢) سورة الإسراء: آية٢٠.

(٣) سورة الممتحنة: آية ٨.

(٤) الشريف الرضي/ نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

الإنسانية لمن يخالفها في الرأي، حيث يكون مهدور الدم، محروماً من جميع حقوقه المادية والمعنوية.

مع أن القرآن الكريم ينص على تكريم الله تعالى للإنسان، باعتبار إنسانيته وقبل أي شيء آخر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

قال ابن عاشور محمد الطاهر: ((والمراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تستند إلى الجماعات))[٢].

وقال السيد محمد حسين الطباطبائي: ((إن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر، مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق))[٣].

حرمة المسلم:

من الطبيعي أن تتعدد الآراء، وتتنوع التوجهات ضمن المجتمع الإسلامي الكبير، سواءً في مجال فهم الدين، والذي هو عبارة عن النص الشرعي المنقول، المتمثل في الكتاب العزيز، والسنة الشريفة، وذلك إما للاختلاف في ثبوت النص، كما هو الحال في بعض أحاديث السنة النبوية، أو للاختلاف في فهم دلالته، وإن كان صدوره قطعياً ككتاب الله المجيد.

أو في مجال تشخيص المصالح الخارجية، حيث يبتني على الاختلاف فيها، تنوع المواقف السياسية، والانتماءات الاجتماعية.

لكن هذا التنوع لا يصح أن يؤثر على الإقرار بالهوية المشتركة، والانتماء الواحد، لجميع

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٢) ابن عاشور: محمد الطاهر/ التحرير والتنوير ج١٤ ص١٣٠.

(٣) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج١٣ ص١٥٢، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.

أبناء الأمة وهو الإسلام.

فكل من آمن بالإسلام ديناً، وأقر بأصوله وأركانه فهو عضو في المجتمـــع الإســـلامي، وجزء لا يتجزأ من الأمة، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، يتعاملون معه كأخ لهم، ويتمتع بالحصانة الكاملة، من حرمة دمه وماله وعرضه، إلاّ بحقّ، ضمن ضوابط القانون الذي ينطبق على الجميع.

ولا يصح لأي جهة أن تحتكر الهوية الإسلامية لنفسها، وتسلبها عن الآخرين المختلفين معها، في الآراء أو المواقف، ولا أن تنتهك شيئاً من حرماتهم، ماداموا يعلنـــون انتمـــاءهم للإسلام، والتزامهم بأركانه.

وقد تضافرت النصوص الشرعية بتأكيد هاتين الحقيقتين بشكل مطلق عام، وهما عضوية معلن الإسلام إلى المجتمع المسلم، وتمتع كل أبناء الأمة بحصانة الإسلام، ولا يؤثر اخـــتلاف الآراء والمواقف على شيء من مقتضيات هاتين الحقيقتين.

ومن النصوص التي تقرر الحقيقة الأولى، قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَـــى إِلَـــيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]. فالآية الكريمة نص صريح في النهي عن التشكيك في إسلام من أعلن إسلامه، ولو كانت هناك قرائن تستدعي الشك، كظـــروف الحرب، وكونه قد أظهر الإسلام لمجرد السلامة والنجاة.

والأحاديث الواردة في شأن نزول الآية الكريمة، تؤكد هذا الأمر، ومنـــها مـــا أورده البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحَرقَة من جُهينة ـــ قبيلة من القبائل ـــ قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل مـــن الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفّ عنه الأنصاري، فطعنتـــه برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لي: ((يا أسامة، أقتلته بعد مـــا

(١) سورة النساء: آية ٩٤.

قال لا إله إلا الله؟)) قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال ﷺ : ((أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟)) قال: فما زال يكررّها عليّ، حتى تمّنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم))[1].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زهرة، وكان شهد بدراً، مع النبي ﷺ، أنه قال: يا رسول الله إن لقيت كافراً فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ : ((لا تقتله)). قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدّي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها، أقتله؟ قال ﷺ: ((لا تقتله فإن قتلته فإنه بمترلتك قبل أن تقتله، وأنت بمترلته قبل أن يقول كلمته التي قال))[2].

وفي تفسير الآية الكريمة يقول ابن عاشور محمد الطاهر: وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، وهي بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سدّه، وكما يَتهم المتهمُ غيره فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، وانظر معاملة النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين[3].

وقال الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره: إن كل من نطق بكلمة الإسلام، وقال أنا مسلم، فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج والإرث، وما إلى ذلك من الأحكام التي تترتب على مجرد إظهار الإسلام، لا على نفس الإسلام حقيقة وواقعاً[4].

أما عن الحقيقة الثانية، وهي حصانة المسلم، فيكفي أن رسول الله ﷺ قد ركزّ عليها في خطبته في حجة الوداع، كأهم قضية، حيث قال فيها: ((أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا

---

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري، حديث رقم ٦٨٧٢.
(٢) المصدر السابق: حديث رقم ٦٨٦٥.
(٣) ابن عاشور: محمد الطاهر/ التحرير والتنوير، ج٤ ص٢٢٦.
(٤) مغنية: محمد جواد/ التفسير الكاشف، ج٢ ص٤١١، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، دار العلم للملايين- بيروت.

أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأمـــوالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.... أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلّمُن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة))[1].وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمـــه ولا يخذلـــه ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه))[2].

ومن خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في أول خلافته قال: ((إن الله حرّم حرامـــاً غـــير مجهول، وأحلَّ حلالاً غير مدخول، وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها))[3].

نهج الرسالة:

وتبييناً لهذه النصوص الإسلامية، وتطبيقاً لها على صعيد الواقع، كانت سيرة الرســـول ﷺ في التعامل مع المنافقين، الذين تتحدث آيات القرآن الكريم عن كذب ادعائهم للإسلام، وأن ما يظهرونه لا يعبر عن حقيقة ما في نفوسهم، من التكذيب بالنبوة، يقول تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـــولُهُ وَاللَّـــهُ يَشْـــهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[4].

كما تتحدث الآيات القرآنية عن سعيهم لعرقلة مسار الدعوة، ومحـــاولاتهم للتخريـــب والإفساد داخل المجتمع الإسلامي، ومع أن الله يتوعدهم بالعذاب والخزي، إلا أن الرســـول ﷺ كان يتعامل معهم كسائر المسلمين من حيث الحقوق والواجبات.

وقد بحث هذه الظاهرة، (حال المنافقين في المجتمع المدني، على عهد رســـول الله ﷺ)

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص٢٥٩.
(٢) النيسابوري: مسلم بن الحجاج/ صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٦٤، طبعة دار الفكر ١٩٨٣م- بيروت.
(٣) الشريف الرضي/ نهج البلاغة خطبة رقم ١٦٧.
(٤) سورة المنافقون: آية ١.

العلامة محمد عزة دروزة في كتابه القيّم (سيرة الرسول) وانتهى إلى النتيجة التالية: هي عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي ﷺ قد اعتبر المنافقين أعداء محـــاربين، أو عاملـــهم كذلك، أو قتل بارزيهم بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه، من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة، التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التتريل عنهم، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجي بـــالإثم والعـــدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودسّ الدسائس وإثارة الفتن والأحقـــاد، وإشاعة الفاحشة، والإرجاف بين المسلمين...

وفي حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين، والإغلاظ لهم ، واعتبـــارهم أعـــداء، وأمر بقتل من لم ينتهِ منهم عن مواقف الأذى والإرجاف، وبنفيه، وبتقتيله أينما ثقف، فضلاً عما أنذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين، وفي حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات الحاسمة..

فإزاء هذا لا نعدو الصواب إذا قلنا: إن النبي ﷺ لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين، فلم يقاتلهم فعلاً، وقد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمـــر تقـــدير ظروف تنفيذها، والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين....

وفي روايات السيرة أن عبدالله بن أُبي هو الذي قال: ((لئن رجعنا على المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)) و((لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا)) وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي ﷺ بقتله فأبى ﷺ قائلاً ما مفاده: لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وأن كعب بن عبدالله رضي الله عنه، وكان مخلصاً، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يـــا رسول الله إن كنت قاتل أبي فأمرني أنا أقتله ولا تأمر غيري لأني لا أطيق أن أرى قاتلاً لأبي، فأقتله فأكفر! فأجابه النبي ﷺ قائلاً: بل نعفو ونصبر عنه، وفي هذا مصداق مـــا قررنـــاه

آنفاً[1].

هذه هي سعة الإسلام وسماحته، لكن الغلاة والمتطرفين، ابتدعوا حالة من التشدد والتصنيف، وصاروا يصنفّون أبناء الأمة، فيعتبرون من خالف رأيهم في بعض التفاصيل العقدية والفقهية مشركاً أو كافراً أو مبتدعاً، أو فاسقاً، ويسلبونه صفة الإسلام والإيمان، وينتهكون حقوقه وحرماته، ويحرّضون على كراهيته وإيذائه.

في مقابل هذه التعبئة التجزيئية للمجتمع، تجب العودة إلى هدي الإسلام، ونشر مفاهيمه الوحدوية الجامعة، التي تركز على أصول الإيمان وأركان الإسلام، تاركة الفروع والتفاصيل لميدان البحث والاجتهاد، فمن اجتهد في أي مسألة دينية عقدية أو فقهية، حسب ضوابط الاجتهاد العلمية، فإن له أجرين إن أصاب، وأجراً واحداً إن أخطأ، كما هو مفاد حديث نبوي اتفق على صحته المسلمون.

ورد في الحديث عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((بحسب امرئ من الإيمان أن يقول رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً))[2].

وعن أبي هريرة عنه ﷺ : ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث))[3].

وعن ابن عمر عنه ﷺ : ((حقيقة الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا))[4].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ((الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله ﷺ، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره

---

(١) دروزة: محمد عزة/ سيرة الرسول ج٢ ص٧٧-٧٩، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان.
(٢) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال، حديث رقم ٨.
(٣) المصدر السابق: حديث رقم ٥.
(٤) المصدر السابق: حديث رقم١٨.

جماعة الناس))[1].

حقوق المواطنة:

حينما تنتمي أمة من الناس لوطن واحد، بما يعنيه الوطن من حدود جغرافية، وكيـــان سياسي، فإن هذا الانتماء يخلق بينهم عيشاً مشتركاً، ومصلحة متداخلة، مما يوجب وجـــود صيغة عادلة للتعايش والتعاون، تتحقق بها المشاركة في المكاسب، والوحدة أمام الأخطـــار والتحديات.

وقد تختلف الانتماءات الدينية والعرقية والسياسية للمواطنين، لكن الوطن يجب أن يبقى إطاراً جامعاً لكل أبنائه، بمختلف انتماءاتهم. وذلك يستدعي الاعتراف المتبادل بين الجميـــع، بالشراكة والتساوي في حقوق المواطنة وواجباتها.

أما إذا اختلت هذه الشراكة، وحدث شيء من الاستئثار أو التمييز بين أبناء الـــوطن، بسبب تنوع التوجهات، فإن ذلك يهدد وحدة الوطن، وأمن المجتمع واستقراره. كما تـــدل على ذلك حوادث التاريخ في الماضي والحاضر.

إن أخطر شيء على وحدة الأوطان ومصالحها، أن تتضـــخم الانتمـــاءات الأخـــرى: كالدين، والمذهب، والقبيلة، على حساب الانتماء للوطن، فتنظر كل جهة للجهات الأخرى عبر دائرة انتمائها الخاص، وهنا تضيع المصلحة العامة، وتضعف وحدة المجتمع.

ولمواجهة هذا الخطر لا بد من وجود وعي وطني، ومساواة حقيقية بين جميع المواطنين. لقد وضع رسول الله ﷺ صحيفة المدينة، في بداية هجرته إليها، لإقرار صيغة تعايش مشترك بين مواطني المدينة آنذاك من المسلمين واليهود، على أساس العدل والإنصاف.

وتعاليم الإسلام في حسن الجوار وحقوق الجار، وفي حقوق الصحبة، حتى مع اختلاف الدين، توجيه إلى أن اشتراك المصلحة يوجب حقوقاً متبادلة بين المشتركين.

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ص٢٥.

التغيير الثقافي أولاً

من أجل تعزيز الوحدة الإسلامية والوطنية، ولتكريس منهج الحوار على مستوى الأمة، لا بد أن ننفض عن نفوس المواطنين وعقولهم غبار ثقافة التطرف والتشدد، ببعث حركة ثقافية وحدوية، تنطلق من محورية حقوق الإنسان، وتركز على حرمة المسلم، وتؤكد الوحدة الوطنية، وتساوي المواطنين في الحقوق والواجبات.

فالوحدة والحوار لا يتحققان عبر طرحهما كعنوان وشعار، ولا بالحديث حولهما في قاعات المؤتمرات بين العلماء والمفكرين، وإنما حين يصبحان قناعة في نفوس أبناء المجتمع، ومنهجاً في تفكيرهم، وسلوكاً في حياتهم اليومية.

يجب أن نبدأ التغيير الثقافي من مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وخطب الجمعة، واستخدام كل قنوات التوجيه والتأثير، ليتربى الجيل الجديد على المحبة والتسامح، ولينظر كل مواطن إلى إخوانه المواطنين، بمختلف انتماءاتهم من منظار الإنسانية، فيحترم حقوقهم كبشر، وبرؤية الإسلام، فيراعي حرماتهم كمسلمين، وضمن إطار المواطنة، فيعترف بهم ويتعاون معهم كشركاء مساوين له في الحقوق والواجبات.

نسأل الله تعالى أن يوحد كلمتنا ويجمع شملنا ويحمي أمن بلادنا إنه سميع مجيب.

التقريب بين المذاهب الإسلامية: إنجازات وعوائق

في وقت تشتد فيه حاجة الأمة للنقد الذاتي والمراجعة الداخلية، على مستوى الأفكــار وصيغة العلاقات السائدة بين قوى الأمة وشرائحها، جاء انعقاد مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية في البحرين، بتاريخ ٢٣ – ١٤٢٤/٧/٢٥هـ. ٢٠ – ٢٠٠٣/٩/٢١م، كأحد مؤشرات الاستجابة لهذه الحاجة الملحة.

ذلك أن الظروف الصعبة التي تعيشها الأمة ليست ناتجة كلها عن الضغوط الخارجية، بل إنها محصلة ونتيجة طبيعية للحالة الذاتية، فلا بد من تغيير ذاتي داخلي، يمهّد الطريق لتطــوير واقع الأمة، لتأخذ مكانة لائقة على المستوى العالمي. كما أكد القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللّــهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

فإذا كانت الأمة لا يحترم بعضها بعضاً فكيف تتوقع الاحترام من المجتمع الدولي؟

وإذا كانت حقوق الأفراد والفئات غير مصونة على المستوى الداخلي، فكيف نأمــل احترام حقوق الأمة على الصعيد العالمي؟

وإذا عجزت الأمة عن إدارة الحوار بين شرائحها واتجاهاتها المتنوعة، فهل يُرجى لهــا النجاح في إدارة الحوار مع الحضارات والأمم الأخرى؟

هذه التساؤلات وأمثالها، تجعل التحديات الداخلية هي الأولى والأجدر بالاهتمام، مــن قبل قادة الأمة، وذوي الرأي فيها.

والتقريب بين المذاهب الإسلامية، قضية ترتبط بالحوار، وإدارة العلاقات الداخلية، فتعدد

المذاهب واقع قائم في حياة المسلمين، له جذوره التاريخية العريقة، التي تمتد إلى القـــرن الأول من تاريخ الإسلام، وكل مذهب له أتباعه الذين يشكلون جزءاً من وجود الأمـــة، علـــى الصعيد السياسي والاجتماعي، وعدم وجود صيغة سليمة للعلاقات بين أتباع هذه المذاهب، تقوم على الاحترام المتبادل، والتعاون في المصالح المشتركة، والحوار في قضايا الخلاف، يعـــني خللاً أساسياً في الفكر ونظام الاجتماع، يعوق وحدة الأمة، ويسلب أمنها، ويمنع تقدمها.

لذلك بادر بعض المصلحين من علماء الأمة، قبل أكثر من نصف قـــرن، للـــدعوة إلى معالجة هذا المشكل، وتأسست دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، وانضم إليها عدد من العلماء والمفكرين والمصلحين من مختلف المذاهب.

لكن العامل السياسي تدخل لعرقلة هذه الحركة الرائدة، فتضاءل نشاطها وتوقف، بينما فُسح المجال لاتجاهات تعصبية متشددة، لتلوث أجواء الأمة بالغلو والتطرف، ولتمعن التجزئة والتمزيق في الجسد الإسلامي الجريح.

و لم تقتصر هذه الاتجاهات على إذكاء الخلاف والتراع بين المذاهب القائمة، بل توغلت أكثر حتى داخل محيطها المذهبي، لتكفر وتحارب كل من يخالفها في رأي أو موقف، وأصبح الحكم بكفر الأمة كلها، والمجتمع كله أمراً متداولاً في هذه الأوساط، فهناك جماعات تعرف بجماعة التكفير والهجرة.

وقد نشرت وسائل الإعلام أخيراً تصريحات نسبتها للشيخ بن داود الخملي المغربي، إذا صح صدورها، هي نموذج لهذا المنحى الخطير.

حيث قال خلال محاكمته في هيئة محكمة الاستئناف في الدار البيضاء بالمغرب: إنه يعتقد أن المجتمع المغربي كافر، وأن أفراد هذا المجتمع لا يستطيعون التحول من الكفر إلى الإسلام، بسبب ما ترسب فيه من كفر. وأنه لا يصلي في المساجد التي يعتبرها (مساجد ضرار)، ولا يصلي الجمعة لأنها في نظره تقام في بلد كافر، ولا يأكل من اللحوم التي تباع في الأســـواق

لأنه يعتبرها من ذبائح الكفار، وأنه عندما توفيت والدته قام بدفنها في بيته باعتبار عدم جواز دفن المسلمين في مقابر الكفار!![1]

البحرين والمبادرة الطيبة

في السنوات الأخيرة عادت الحياة من جديد إلى مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وضمن هذا السياق جاءت مبادرة مملكة البحرين، حيث تجاوبت مع اقتراح من مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، ودعت إلى مؤتمر يجدد طرح موضوع التقريب، ويعالج أبعاده وقضاياه، وحضر المؤتمر نخبة واعية من العلماء والمفكرين، من مختلف الأقطار والمذاهب الإسلامية السبعة: المذاهب الأربعة لأهل السنة، ومذهب الشيعة الإمامية، والمذهب الزيدي، والمذهب الأباضي.

واستمر المؤتمر ثلاثة أيام، قُدمت خلالها مجموعة من البحوث القيمة، والمداخلات المفيدة، وتمت لقاءات جانبية كثيرة، بين الشخصيات المشاركة، للتعارف وتبادل الرأي، وإرساء أسس التواصل والتعاون.

كما استقبل ملك البحرين ورئيس وزرائها الوفود المشاركة، ليؤكدا دعمهما لأهداف المؤتمر وتوجهاته، وقامت وسائل الإعلام لمملكة البحرين بتغطية نشاطات المؤتمر، وبث جلساته كاملة عبر التلفاز.

ويمكن رصد مجموعة من المؤشرات الإيجابية في المؤتمر لصالح حركة التقريب ووحدة الأمة الإسلامية:

أولاً: إنه أول مؤتمر يعقد في منطقة الخليج والجزيرة العربية، لمعالجة قضية العلاقة بين المذاهب، وهذه المنطقة أحوج من غيرها لمثل هذا الطرح، حيث يتنوع انتماء مواطنيها لجميع المذاهب الإسلامية، من سنة وشيعة وأباضية، ولا تكاد تجد مثل هذا التنوع في أغلب المناطق

---

(١) الشرق الأوسط ٢٠٠٣/٩/١٦م.

الإسلامية.

من ناحية أخرى، فإن حالة الجفاء والتشنج المذهبي، في هذه المنطقة، تعتبر الأعلى والأشد، وقد يرى الكثيرون أن المنطقة هي التي صدّرت حالات الخصام المذهبي إلى سائر الآفاق والبقاع.

فانعقاد المؤتمر في المنطقة الخليجية، وبهذا الزخم الشعبي والرسمي، يعزّز التطلع والأمل بإمكان تجاوز الأمة لهذا الإشكال المزمن.

ثانياً: كان الاتجاه السلفي من أكثر المتحفظين تجاه دعوة التقريب بين المذاهب، وكان ينظر إلى هذه الدعوة نظرة ريب وشك، وصدرت بعض الكتابات التي تعبّر عن هذا الموقف، وترى أن السبيل الوحيد لحل المشكلة المذهبية، هو تنازل الآخرين عن أفكارهم وآرائهم، وعودتهم إلى منهج أهل السنة والجماعة، وتحديداً اتباع المنهج السلفي.

وهو بالطبع شرط تعجيزي غير قابل للتحقق، ولا يرضى به الآخرون، الذين يعتقدون صوابية وأحقية منهجهم، كما يعتقد السلفيون ذلك في أنفسهم.

لكن المشاركة الطيبة لمجموعة من الشخصيات المنتمية للاتجاه السلفي، في مؤتمر البحرين للتقريب بين المذاهب، بالحضور الواضح، وتقديم البحوث، وإلقاء المداخلات، وعقد اللقاءات مع مشاركين من مختلف المذاهب، يعتبر مؤشراً مهمّاً، لصالح حركة التقريب وتوحيد صفوف الأمة.

إنه ليس منطقيّاً أن يُطلب من أحد من السنة أو الشيعة أو الأباضية التخلي عن قناعة دينية يؤمن بها، كشرط مسبق للحوار والتعاون، بل المطلوب وجود إطار يرتكز على المشتركات وموارد الاتفاق، ويبقى الحوار والبحث العلمي، هو سبيل تغيير القناعات والآراء، أو تشذيبها وتطويرها، لدى مختلف الأطراف.

ثالثاً: جاءت مشاركة علماء وشخصيات من العراق من الشيعة والسنة في المؤتمر، لتؤكد

إرادة الشعب العراقي في الوحدة وتفويت الفرصة على الأعداء والمغرضين، الذين يريـــدون إشغال الشعب العراقي عن استعادة حريته واستقلاله، وبناء مستقبله الـــديمقراطي، بـــالفتن الداخلية من طائفية وغيرها.

كما أن حضور علماء فضلاء من الحوزة العلمية في النجف الأشرف، يعني بداية استعادة هذه الحوزة العريقة، لدورها في الساحة الإسلامية العالمية، بعد سنوات طويلة من الغيـــاب القسري.

رابعاً: تميَّز المؤتمر بمشاركة شخصيات نسائية، مـــن الرائـــدات في العمـــل الإســـلامي والاجتماعي، حيث قدمن بحوثاً طيبة، وشاركن في الجلسات وإلقاء المداخلات، مما يعزّز دور المرأة المسلمة، ويؤكد مشاركتها في خدمة قضايا الأمة، ويكسر حواجز التحفّظ المبالغ فيـــه تجاه حضور المرأة ومشاركتها، إلى حدٍّ بدأ فيه وكأن العمل الإسلامي والمؤسســـة الدينيـــة ذكورية، لا مجال فيها لدور نسائي متقدم.

مع أن تاريخ الرسالات الإلهية يسجل حضور المرأة كعنصر أساس في حركة الدعوة، ففي ما يقص القرآن الكريم من سيرة نبي الله موسى عليه السلام، نجد دوراً بارزاً، لشخصيات نسائية، في صناعة الأحداث وإدارتها، كأم موسى وأخته وزوجته بنت شعيب، وشخصـــية زوجـــة فرعون.

كما تتجلى شخصية السيدة العذراء مريم بنت عمران، التي ينسب إليها نبي الله عيســـى عليه السلام.

أما تاريخ الدعوة الإسلامية، فللمرأة فيه دور السبق والعطاء، والمشاركة الحاسمة في كثير من المواقف، بدءاً من شخصية السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وابنتها سيدة نســـاء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، إلى سائر أمهات المؤمنين والصـــحابيات الجلـــيلات، الـــلاتي شاركن في الحروب، بمباشرة القتال في بعض المعارك، والعمل خلف الجبهة في أكثر الغزوات،

كما شاركن في حفظ المعارف الإسلامية ونشرها.

عوائق الوحدة والتقريب

رغم أن دواعي الوحدة، وتصحيح العلاقات الداخلية بين المذاهب، قد فرضت نفسها على ساحة الأمة، في عصر التحديات الكبرى، ورغم تهاوي مبررات النزاع والخلاف المذهبي، في زمن حوار الحضارات، وتحالف التكتلات العالمية، إلا أن بعض العوائق لا تزال قائمة على الأرض، تعرقل مسيرة الوحدة والتقريب، وتمنع ترجمتها من لغة الشعار والخطاب، إلى منطق الفعل والواقع، وتحول دون خروجها من قاعات المؤتمرات واللقاءات، إلى شارع الجمهور والحياة الاجتماعية.

ومن أبرز هذه العوائق ما يلي:

١- رفض بعض الفئات الإسلامية قبول التعددية في الرأي، وإصرارها على محاكمة الرأي الآخر، وفق مسلماتها وعلى ضوء مرجعياتها، مبررة ذلك بأن الخلاف في القضايا العقدية غير مقبول، وهو يعني التفرّق المذموم في الدين، وإذا كان لا بد من قبول الخلاف، فهو في دائرة المسائل الفقهية، حيث لا مانع من تعدد المذاهب الفقهية.

لكن هذا التبرير ليس صحيحاً ولا منطقيّاً، فالاختلاف العقدي المرفوض هو ما يكون في أصول العقيدة، بأن ينكر أحد وجود الله تعالى ووحدانيته، أو نبوة النبي ﷺ والأنبياء السابقين، أو الإيمان بالبعث يوم القيامة، أو يرفض مرجعية القرآن والسنة.. إن من ينكر شيئاً من هذه الأصول يخرج عن دائرة الإسلام، وبالتالي فالاختلاف فيها غير مقبول.

أما التفاصيل والجزئيات العقدية، فباب الاجتهاد فيها مفتوح، والاختلاف حولها قديم، وكما يصح الاختلاف في المسائل الفقهية، يصح في هذه المسائل الجزئية العقدية، فإذا كان هناك نص نقلي حول شيء منها، فإن من الوارد النقاش في مدى ثبوت صحته سنداً، ثم حول دلالته وما يفهم منه.

وللشيخ ابن تيمية كلام واضح حول وقوع الاجتهاد في القضايا العلمية العقدية ومعذورية المخطئ فيها. جاء في المجلد العشرين من مجموع فتاواه ما يلي:

(والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية كما قد بسط في غير موضع، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد و لم يعرفه، مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أن الله لا يُرى؛ لقوله: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما يدلان بطريق العموم.

وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نقل عن مجاهد وأبي صالح.

أو من اعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي؛ لاعتقاده أن قوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يدل على ذلك؛ وأن ذلك يقدم على رواية الراوي لأن السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف.

أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي؛ لاعتقاده أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يدل على ذلك.

أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون من جهل السبب والله متره عن الجهل.

أو اعتقد أن عليّاً أفضل الصحابة؛ لاعتقاده صحة حديث الطير؛ وأن النبي ﷺ قال: ((اللهم ائتني بأحب الخلق إليك؛ يأكل معي من هذا الطائر)).

أو اعتقد أن من جس للعدو وعلمهم بغزو النبي صلى الله عليه وسلم فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك عمر في حاطب وقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

أو اعتقد أن من غضب لبعض المنافقين غضبة فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك أسيد بن حضير في سعد بن عبادة وقال: إنك منافق! تجادل عن المنافقين.

أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن؛ لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظاً من القرآن، كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾، وقال: إنما هي ووصى ربك. وإنكار بعضهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، وقال: إنما هو ميثاق بني إسرائيل، وكذلك هي في قراءة عبدالله. وإنكار بعضهم ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ إنما هي أو لم يتبين الذين آمنوا. وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم، لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها. وكما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

وكما أنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي، لاعتقادهم أن معناه أن الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به. وأنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي، لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلا بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى وبهذا المعنى، لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر.

وكالذي قال لأهله: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم ذروني في اليم فو الله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين.

وكما قد ذكره طائفة من السلف في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وفي قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾، وكالصحابة الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فلم يكونوا يعلمون أنهم يرونه، وكثير من الناس لا يعلم ذلك، إما لأنه لم تبلغه الأحاديث، وإما لأنه ظن أنه كذب

وغلط)[1].

نلحظ في هذه المقالة للشيخ ابن تيمية، مجموعة من الأمثلة والشواهد، لمسائل عقدية، تخالف الرأي السلفي، وبعضها يخالف إجماع جمهور الأمة كصيانة القرآن عن النقص والتحريف، لكنه يرى أن اعتناق هذا الرأي المخالف، إذا كان صادراً عن اجتهاد، فهو داخل تحت عنوان الخطأ الاجتهادي المغفور.

٢- المحاسبة على ما ورد في بعض كتب التراث الشيعي، كالمصادر الحديثية، من إساءة ولعن لبعض الصحابة والخلفاء، وهنا لا بد من القول بأن للشيعة رأيهم في تقويم شخصيات الصحابة والخلفاء، وذلك لا إشكال فيه على مستوى البحث العلمي والتحليل التاريخي، أما اللعن والسبّ، فهو أمر مرفوض من قبل مراجع الشيعة وقياداتهم، ولا أحد يمارسه إلا بعض الجهّال والمنفعلين.

وهذه وسائل الإعلام في المجتمعات الشيعية، كإيران ولبنان والعراق، من فضائيات وإذاعات وصحف، وهي تنقل خطب علماء الشيعة وتصريحاتهم، لا يوجد فيها مثل ذلك.

أما كتب التراث والمجاميع الحديثية، فإن الشيعة يعترفون باحتوائها على الغث والسمين، والصحيح والضعيف والكذب، ولذلك لا يعتبرون أيّاً منها كله قطعي الصدور، وصحيح الإسناد.

وأهم مصادرهم الحديثية هي الكتب الأربعة المعروفة (الكافي، التهذيب، الاستبصار، من لا يحضره الفقيه) ورأي فقهائهم أن كل حديث ورد فيها يحتاج إلى بحث في سنده، فهي ليست قطعية الصدور.

يقول الإمام الخوئي أحد أبرز مراجع الشيعة المعاصرين (١٣١٧هـ-١٤١٣هـ):

(ذهب جماعة من المحدثين إلى أن روايات الكتب الأربعة قطعية الصدور، وهذا القول

---

(١) ابن تيمية: أحمد/ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ج٢٠ ص٣٣-٣٦.

باطل من أصله، إذ كيف يمكن دعوى القطع بصدور رواية رواها واحد عن واحـــد؟ ولا سيما أن في رواة الكتب الأربعة من هو معروف بالكذب والوضع)

ويقول ردّاً على من احتج بأن اهتمام أصحاب الأئمة وأرباب الأصول والكتب بأمر الحديث إلى زمن مؤلفي الكتب الأربعة، يدلنا على أن الروايات التي أثبتوها في كتبهم قـــد صدرت عن المعصومين.

يرد السيد الخوئي بما جاء فيه: (مع ذلك لا يحصل لنا العلم بصـــدور رواياتهـــا عـــن المعصومين، وذلك فإن أرباب الأصول والكتب لم يكونوا كلهم ثقات وعدولاً، فيحتمـــل فيهم الكذب، وإذا كان صاحب الأصل ممن لا يحتمل الكذب في حقه، فيحتمل فيه السهو والاشتباه).

ثم ينقل الخوئي عن أصحاب الكتب الأربعة أنهم لم يكونوا يعتقدون بصدور روايات كتبهم عن المعصومين جزماً[1].

ومن يقرأ كتب الشيعة في الفقه الاستدلالي، يجد الشواهد الكثيرة على مناقشة فقهائهم لأحاديث من الكافي وبقية الكتب الأربعة، وعدم العمل بها.

إنه ليس صحيحاً أن نبقى في أسر كتب التراث الحديثية والتاريخية، فهي بمجملها تحتاج إلى غربلة وتمحيص، وكما في مصادر الشيعة كذلك في مصادر السنة، فلا يصح أن يحاكم بعضنا بعضاً على ما ورد في كتب الأسلاف، بل نتعامل على أساس ما هو معتمد ومعمول به لدى جمهور العلماء المعاصرين عند الفريقين.

٣- سياسات التمييز الطائفي: حينما يتنوع الانتماء المذهبي بين المواطنين، فلا يصـــح أن يؤثر ذلك على واقع المساواة بينهم، فيما يرتبط بنظام الحقوق والواجبات، لأن تمييز أي فئة على أخرى، لاعتبار مذهبي يخلق أرضية المشاحنة والعداء، ويكرس الخصومة والـــنزاع.

---

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم/ معجم رجال الحديث ج١ ص٢٢-٢٦، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ، مطبعة الصّدر، قـــم المقدسة – إيران.

بينما يبدد العدل والمساواة كل آثار الاختلاف، ويؤكد الوحدة الوطنية ويحمي أمن المجتمع.

هذه هي أبرز العوائق التي تعترض مسيرة الوحدة والتقريب، ويجب أن يتم بحثها ومعالجتها بحكمة وإخلاص، من جميع الأطراف، ودون حساسية وانفعال، أو إثارة وتهريج. وهذا ما نأمل أن تضعه المؤتمرات القادمة على جدول أعمالها.

إن انعقاد مؤتمر التقريب بين المذاهب، يجدد روح العزم والتصميم على تجاوز هذه الإشكالات التاريخية المزمنة، ويبعث آمال المصلحين والغُيرَ على مصلحة الإسلام والأمة، ويذكّر أبناء المجتمع الإسلامي بمسؤولياتهم الخطيرة في الظروف الراهنة.

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم.

٢. ابن تيمية: أحمد، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي.

٣. ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت.

٤. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

٥. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار الجيل – دار لسان العرب، بيروت ١٩٩٨م.

٦. ابن هشام: عبدالملك، السيرة النبوية، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧. أبو زهرة: محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة.

٨. الآلوسي البغدادي: السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩. الآمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٠. الأمين: السيد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨٦م.

١١. الأنصاري: الشيخ مرتضى، فرائد الأصول، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة

الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٢. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلميــة، بــيروت ١٩٩٩م.
١٣. الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ.
١٤. الثعالبي: أبو منصور عبدالملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. الجمل: الدكتور يحيى، تعالوا نختلف، مجلة العربي، العدد ٣٤١، نيسان (أبريــل) ١٩٨٧م، الكويت.
١٦. الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسســة آل البيــت لإحيــاء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
١٧. الحكيم: محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن، الطبعة الثانيــة ١٩٧٩م، دار الأندلس، بيروت.
١٨. الحويزي: الشيخ عبدالعلي، تفسير نور الثقلين، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
١٩. الخوئي: السيد أبو القاسم، معجم رجال الحديث، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ، مطبعة الصدر، قم المقدسة – إيران.
٢٠. دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان.
٢١. دكت: الدكتور جون، علم النفس الاجتماعي والتعصب، ترجمــة الــدكتور عبدالحميد صفوت، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
٢٢. الريشهري: محمدي، ميزان الحكمة، مطابع مركز النشر – مكتــب الإعــلام الإسلامي، قم ١٤٠٣هـ.

٢٣. الزهراني: محمد بن حسن، التنمية الأكاديمية لاتجاهات التعصبية، مقال في جريدة الوطن السعودية، عدد ٤٧٣، تاريخ ١٥ يناير ٢٠٠٢م.
٢٤. السجستاني: الحافظ أبو داود، سنن أبي داود، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الجنان – مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت.
٢٥. السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الذخائر، بيروت ١٤١٨هـ.
٢٦. السندي: أبو الحسن الحنفي، شرح سنن ابن ماجة، دار الجيل، بيروت.
٢٧. الشرق الأوسط، صحيفة يومية تصدر من لندن، ٢٠٠٣/٩/١٦م.
٢٨. الشريف الرضي: نهج البلاغة، الطبعة الخامسة ١٩٦٧م، تحقيق: الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٩. الشيرازي: ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، مؤسسة البعثة، بيروت.
٣٠. الصاحب: إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٣١. الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٣٢. الطبرسي: الفضل بن الحسن، مجمع البيان، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٣٣. عبدالله: د. معتز سيد، الاتجاهات التعصبية، عالم المعرفة ١٣٧، الكويت ١٩٨٩م.
٣٤. الغزالي: أبو حامد، إحياء علوم الدين، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار الهادي،

بيروت.
٣٥. الغزالي: محمد، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، الطبعة الخامسة ١٩٩٤م، دار الشروق، القاهرة.
٣٦. قافلة الزيت: مجلة شهرية، شركة أرامكو، عدد محرم ١٤١٦هـ.
٣٧. القرضاوي: الدكتور يوسف، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٨. الكلمة: مجلة فكرية فصلية تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، العدد ٨، عام ١٩٩٥م.
٣٩. الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، دار الأضواء، بيروت.
٤٠. المجلة: مجلة أسبوعية، تصدر من لندن، عدد ٨٧٨ بتاريخ ٨-١٤ديسمبر ١٩٩٦م.
٤١. المجلسي: الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية مصححة ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت.
٤٢. المدرسي: السيد محمد تقي، التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الرائد العربي، بيروت.
٤٣. مغنية: محمد جواد، التفسير الكاشف، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، دار العلم للملايين، بيروت.
٤٤. الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، الرياض.
٤٥. النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، طبعة دار الفكر ١٩٨٣م، بيروت.
٤٦. الهندي: علي المتقي، كتر العمال، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة،

بيروت

٤٧. . وجيه: الدكتور حسن محمد، مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، عالم المعرفة، ١٩٠، الكويت ١٩٩٤م.

٤٨. اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى، الطبعة الثانية ١٩٩٠م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

المحتويات